# الهيـدرا الرقميــة

# الهيدرا الرقمية

## قصص قصيرة
## من أدب الخيال العلمي والمستقبل

تأليف
عماد الدين عيشة

ترجمة
أحمد صلاح المهدي

اسم الكتاب: الهيدرا الرقمية
اسم الكاتب: عماد الدين عيشة
ترجمة: أحمد صلاح المهدي
تدقيق لغوي:
تصميم الغلاف:
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠٢٠
رقم الإيداع: 2020 / 3696

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

## إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى ذكرى أبي وأمي، مرعي عيشة ونجوى رشوان، اللذان لم يمهلهما القدر ليعيشا حتى يريا نشر أول كتاب لابنهما.

**عماد**

# مقدمة المترجم

د. عماد الدين عيشة هو كاتب بريطاني ولد في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤ لأب فلسطيني وأم مصرية، حاصل على دكتوراه في الدراسات الدولية من جامعة شفيلد في المملكة المتحدة، عمل محاضرًا في الجامعة الأمريكية والجامعة البريطانية بمصر، له عدة مؤلفات وترجمات ومقالات أدبية سينمائية وخصيصًا في أدب الخيال العلمي، كما أنه عضو فاعل في الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي، هو من الكتاب القلائل في الساحة العربية المخلصين حقًا لأدب الخيال العلمي، رغم كونه يكتب باللغة الإنجليزية ـ لغته الأم ـ بسبب مولده ودراسته في بريطانيا، إلا أن أفكار رواياته وقصصه القصيرة عربية حتى النخاع، وقد نالت قصصه عدة جوائز من الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي وخصوصا القصص التي تنتمي إلى أدب المقاومة.

تجمع كتابات د. عيشة بين عنصرين جوهريين، الأول هو النظرية العملية؛ مثل فكرة السفر عبر الفضاء واستعمار الكواكب الأخرى، أو السفر عبر الزمن للحضارات القديمة، وقضايا السايبربانك والروبوتات وغيره، والأمر الجوهري الآخر هو اهتمامه ومعرفته بالتاريخ وإلمامه بتفاصيله وخاصة التاريخ العربي والإسلامي. فعلي سبيل المثال، عمله الأكبر "سجلات الجزيرة الخضراء: المسلمون على المريخ" ـ والذي نشر أجزاء منه على هيئة قصص قصيرة ـ يعد أبرز مثال على أسلوب د. عيشة الأدبي، فالقصص تروي عن مستقبل استعمر فيه البشر المريخ، وعن العرب والمسلمين الذين يتمتعون بعدة مستعمرات منفصلة على المريخ، ويناقش خلالها قضايا العرب ومشاكل الجيران من منظور خيالي علمي عربي إسلامي، ويظهر المؤلف في قصصه المسلمين من حضارات وثقافات مختلفة على الأرض، وكيف يحيون ويتصرفون على المريخ.

ولم يظهر فيها الكاتب معرفته بالتاريخ فقط، ولكن أظهر بوضوح معرفته بالدين والمذاهب والسياسة أيضًا. ونقدم في هذا الكتاب قصة "منحنى في الفضاء" إحدى قصص سجلات الجزيرة الخضراء، التي تظهر كيف أن العيب ليس في المكان ولكن في الأشخاص أنفسهم؛ وأي مكان سيذهبون إليه سيحملون معهم مشاكلهم الخاصة.

وبجانب السفر في الفضاء فهنالك السفر عبر الزمن في قصة "زمن الأبطال: ملحمة كلكامش الجديدة" التي تدور أحداثها في العراق في المستقبل، ثم تنتقل بنا إلى الماضي، إلى عصر "كلكامش" بطل الملحمة الشهيرة، ويرسم د. عيشة بدقة – بعقل باحث تاريخ وريشة فنان – حضارة وثقافة وعادات البشر في تلك الأحقاب القديمة، فيشعر القارئ أنه يرى الأحداث ويعايشها، ولا تخلو القصة من عناصر الخيال العلمي، وكيف استطاع البطلان التواصل مع كلكامش والناس في عصره باستخدام التكنولوجيا

الموجودة معهم، بشكلٍ غاية في الإتقان والإقناع، مما يدل على أننا أمام قاصٍ بارع.

وبجانب السفر عبر الفضاء وعبر الزمن فالكاتب له قصص متنوعة في أدب الجاسوسية أو "الاسبياناج" وقصص الروبوتات والذكاء الصناعي والواقع الافتراضي أو "السايبربانك" هذه الأجواء التي اعتدنا عليها أوروبية خالصة يرسمها د. عماد في جوٍ عربي مميز، مثل قصة الهيدرا الرقمية التي تتحدث عن المقاومة من خلال ألعاب الواقع الافتراضي. يظهر في تلك القصص اهتمام الكاتب بالتفاصيل الدقيقة، وحرصه على اكساب قصصه حلة مميزة، فالقارئ المتمعن لن يخطئ التعرف على قصة كتبت بقلم "عماد الدين عيشة"، هذا بجانب أسلوبه اللغوي غير المباشر الذي يتميز بالتلاعب بالكلمات والسخرية المبطنة مما يجعل من ترجمة قصصه مهمة شاقة، ولكنها ممتعة بلا شك.

أتمنى بترجمتي لقصصه أن أضيف إلى المكتبة العربية إضافة جديدة ومميزة، فقلم عماد الدين عيشة قادر على تغيير وجه الخيال العلمي في العالم العربي والإسلامي، ولعله في العالم أجمع، فهو يضفي بأعماله بعدًا جديدًا لهذا النوع من الأدب على شاكلة الرواد الأوائل للخيال العملي مثل جول فيرن وإتش جي ويلز وإيزاك أزيموف وفيليب كي. ديك، وأتمنى أن يستمتع القارئ بهذه الرحلة في عوالم الخيال العلمي في المستقبل والماضي، وفي الأرض والفضاء.

**المترجم**

# الهيدرا الرقمية

استمع للناي كيف يقص حكايته.

إنه يشكو آلام الفراق. (يقول):

إنني منذ قطعت من منبت الغاب،

والناس رجالًا ونساءً يبكون لبكائي.

إنني أنشد صدرًا مزقه الفراق،

حتى أشرح له ألم الاشتياق.

فكل إنسان أقام بعيدًا عن أصله،

يظل يبحث عن زمان وصله.

لقد أصبحت في كل مجتمع نائحًا،

وصرت قرينًا للبائسين والسعداء.

وقد ظن كل إنسان أنه قد أصبح لي رفيقًا،

ولكن أحدًا لم ينقب عما كمن في باطني من الأسرار.

وليس سري ببعيد عن نواحي،
ولكن أنى لعين ذلك النور
أو لأذن ذلك السمع الذي به تدرك الأسرار؟
وليس الجسم بمستور عن الروح،
ولا الروح بمستورة عن الجسم،
ولكن رؤية الروح لم يؤذن بها لإنسان.
إن صوت الناي هذا نار لا هواء،
فلا كان من لم تضطرم في قلبه مثل هذه النار.

**جلال الدين الرومي**

**الأبيات ترجمة**
**محمد عبد السلام كفافي**

رجل مريب، في مكان مشبوه من المدينة، كان يوزع أقراصًا مدمجة، تكاد تكون مجانية. من نوع بحجم الجيب، هذا الذي تحشره في رأسك.

***

"لقد استأصلنا لغة هؤلاء القوم، وعاداتهم وملابسهم، لقد قضينا على قيادتهم بأكملها، سحقناهم عسكريا..." كان المتحدث رئيس البوليس السري، ولقبه الرسمي مدير المخابرات. "ولكنهم يعيدون تنظيم صفوفهم من جديد، خارج البلاد. لديهم جماعات ضغط سياسي في كل الدول التي نتعامل معها، وهم يجعلون حياتنا جحيمًا طيلة الوقت".

فكر مساعد المدير بينه وبين نفسه، هذا لأننا نستورد كل شيء، من كل تلك البلدان، حتى أدوات التعذيب. ثم قال "لقد قضينا على مدارسهم وقنواتهم الإذاعية، ولكن هذا لا يعني أننا قضينا على لغتهم. لقد ظن الإنجليز أنهم قد فعلوا ذلك مع

الأسكتلنديين، وأنظر ما قد الحدث. لطالما نهضت العنقاء من تحت الرماد".

قال المدير بإصرار: "لم يكن لدى الإنجليز التكنولوجيا المتاحة لنا. لو أن هؤلاء المتمردين يستخدمون الانترنت كنا لنعرف؛ إننا نراقب كل شيء. لا تغادر مكالمة هاتف واحدة هذه الدولة دون أن نسمعها. لا يمكن أن يتعاونوا مع أبناء بلدتهم بالخارج، كنا لنعرف ذلك. لدينا رجالنا بين هؤلاء الشتات المهاجرين. "

قال المساعد: "حسبما يبدو لنا فإنهم ينظمون صفوفهم، يمكنني القول إن الشتات قد صار جسدًا واحدًا".

قال المدير متبجحًا: "هذا مستحيل! إنهم لم يتحدثوا أبدًا بصوتٍ واحد، حتى في بلدنا، وهم الآن متبعثرين في بلادٍ عدة. لدينا جميعًا مصلحة مشتركة في إبقائهم عند حدهم. لو كان هناك أي تعاون بينهم لأخبرني 'زملائي' بذلك." كان يقصد زملائه من

مديري المخابرات ورؤساء أجهزة البوليس السري في المنطقة. لقد صار الوضع متأزمًا للغاية في بلدته، في مرحلةٍ ما اضطروا إلى السماح لجيرانهم بغزو أراضيهم للقضاء على الانفصاليين.

الآن صار الانفصاليون خارج نطاق نفوذهم، ماذا عليهم أن يفعلوا؟ يتعقبونهم في منبعهم؟

ولكن ماذا لو لم يكن هناك منبع؟

***

ولد صغير، فتى لا أكثر، يسير عبر زقاقٍ مظلم في جزء مشبوه من المدينة.

خرج بائع متجول يرتدي معطفًا طويلًا من إحدى الأركان المظلمة وعرض عليه أحدث ألعاب الفيديو ذات الواجهة الحيوية. لعبة محاكاة. من النوع الذي يحبه. المشكلة الوحيدة هي أن الفتى عليه أن يتعلم لغة أخرى.

لم يكن الفتى يتحدث أي لغة ـ حتى الإنجليزية ـ عدا تلك التي تعلمها في المدرسة. إنه لا يعرف والديه، لقد حُجزا في مصحة أمراض عقلية، وتعرضا للحقن بالأدوية والمهدئات باستمرار عبر الوريد حتى فقدا القدرة على النطق. ولكنه لم يكن يعرف أي شيء من هذا، لقد كان تحت وصاية الدولة.

قال البائع المتجول: "لا تحمل همًا، اللغة التي كُتبت بها اللعبة تُحمل نفسها إلى المخ بمجرد أن تُدخِل القرص الصغير." ثم أعطاه اللعبة بمبلغٍ زهيد.

لقد وضع ملجأ الأيتام محرك الأقراص في جمجمة الفتى، لمحو أي ذكرى باقية وللتسهيل من عملية إدخال اللغة. وكانت حجتهم هي أن هذه هي الطريقة الوحيدة والأكيدة لحملٍ شخصٍ ما على الخضوع التام. ما يزال لديهم الإرادة الحرة، رسمياَ، ولكن بهذه الطريقة يمكنك التحكم في تدفق المعلومات إلى رأس الفتى. يجب أن يكون لديك جهاز الاتصال لإدخال المعلومات مباشرة، مما يجعل العقل غير قابل للاختراق. حتى لو شاهد أحد هؤلاء البؤساء إذاعة تلفزيونية مقرصنة أو قرا صحيفة أجنبية أو صادف أن استمع إلى قناة راديو محظورة، فإنهم سيتفحصون قواعد البيانات في عقولهم ويقنعون أنفسهم بالبيانات المعارضة.

إنها آلية التحكم المثالية، لولا وجود ألعاب الفيديو في السوق السوداء.

إن كان هناك مجالًا لربح المال، فإن الأشخاص المناسبين سيجدون طريقة. يمكن لأي شخص اللعب بالتكنولوجيا، ولا يوجد طريقة لربح المال أفضل من أن تصنع دائرتك الانتخابية الخاصة.

***

قال المساعد: "لقد صدقت الأمم المتحدة للتو على قرار يلزم بفتح مدارسهم القديمة وتعليمهم لغتهم مجددًا".

كان المدير يجلس وراء مكتبه، ساقيه على المكتب، دون أدنى ذرة مبالاة، وقال: "ليس مشكلة، فمن متى يخاف أحد من الجمعية العامة للأمم الـ...".

قال المساعد مصححًا له: "لقد كان مجلس الأمن". خرجت الكلمات من فمه كطلقات الرصاص.

كاد الرجل الساذج الجالس وراء المكتب أن يسقط للوراء.

فالأمم المتحدة كلها في كفة، وهذا الفرع منها في كفةٍ أخرى.

***

انتشرت الأخبار عن اللعبة عبر الأحاديث الشفاهية، من طفل إلى طفل إلى مراهق إلى شاب.

كل واحد منهم استطاع أن يعيش حياة كاملة في رأسه، أن يرى تاريخ شعبه بأكمله، أن يلعب دور كل أبطالهم، أن يعيش المعارك والانتصارات وأن يتعلم من الهزائم. تعلموا إدارة شؤون المدينة ودبلوماسيتها واقتصادها وعلومها. تشريع القوانين الجديدة. إعادة تشكيل مجلس الشيوخ ليمثل الشعب. كل شيء.

أنت تحمل شعبًا معك أينما ذهبت، في قلبك وروحك. وبما أن جمجمتك لا يمكن اختراقها، فلن يشعر أحدًا بشيء.

كل هؤلاء المتلقين سيكبرون يومًا ليصيروا رجالًا، مقدر لهم الهجرة إلى الأماكن الأكثر رخاءً في أنحاء العالم.

***

قال المساعد: "إنهم يفعلونها، إنهم يفعلونها حقًا"، كانت إحدى عينيه ترتعش مع جانب وجهه الأيمن.

قال المدير في محاولة جوفاء لإقناع نفسه: "هذا لا شيء، مجرد أثرٍ قديم".

كان وجهه ملتصقًا بشاشة التلفاز، وعلماء الأثار يحفرون، ويكشفون عن المدينة التي ضاعت من زمنٍ بعيد.

"إنها علامة، علامة هلاكنا!".

***

كانوا في القرن الثاني والعشرين وقد أدت التغيرات البيئية والجيولوجية إلى الكشف عن قارةٍ مفقودة. سارعت الدول المحيطة للزعم بأحقيتها لقطعة الأرض تلك، بينما من يسمون بالسكان المحليين ـ المهاجرين غير الشرعيين الذين سبقوهم بالهجرة إلى هناك ـ زعموا أنهم منحدرين من سلالة المواطنين الأصليين.

اندلعت الحرب وأجبر السكان المحليين على الخضوع، وضاعت لغتهم المختلقة أدراج الرياح، وتفرقت دولتهم الخيالية بين المنتصرين، الذين على الأقل أتوا من دول معترف بها دوليا. هذا لا يعني أنهم ظلوا جزءً من تلك الأمم لوقتٍ طويل. لقد نالوا استقلالهم أيضًا، رغم أنهم يتحدثون لغاتهم الأصلية، بلكنةٍ ثقيلة. (وهم يطارد وهم!)

لهذا خسر المنتصرون في النهاية. لقد ضيقوا الخناق على أنفسهم، بإهمال العلاقات مع مواطنهم الأصلية. الوجوه الجديدة على الساحة، لديهم كل الدهاء والمهارة لتحقيق نجاح كبير بالخارج، والآن لديهم كل الذكريات التي يحتاجونها لتنظيم صفوفهم بدون الحاجة حتى لتبادل كلمةٍ واحدة.

هناك شيء يدعى بمحاكاة نموذج للأم المتحدة. التظاهر بكونهم دبلوماسيين ومحامين دوليين. كان هذه ببساطة هي الخطوة المنطقية التالية؛ محاكاة للمجتمع الدولي، التحديث الأخير

للبرمجيات، يباع بسعرٍ مخفض إذا كنت من المعجبين المخلصين، وبما أن الجميع قد حملوا البرنامج ذاته في رؤوسهم، فإنهم جميعًا لديهم الشيء ذاته. من المستحيل مراقبته ـ لم يكن هناك شيء لمراقبته ـ ولكنه نجح رغم ذلك.

بعد أسبوعين من كشف النقاب عن المدينة الأسطورية، أجبر المجتمع الدولي الدول المتصارعة على القارة الجديدة-القديمة على الاعتراف باستقلال أحدث (وأقدم) دولة في التاريخ البشري... أطلنتس.

بغض النظر عن أن لغة القدماء الأصليين، بعد أن فُكت شفراتها بعد سنوات طويلة، أثبتت بشكلٍ قاطع أن الجنس الأصلي قد انقرض عندما غرقت الأرض في المحيط. حتى دراسات الحمض النووي للعظام التي نقبوا عنها قد أثبتت أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم منحدرين منهم لا تربطهم بهم أدنى صلة.

إنها مجرد لعبة في نهاية المطاف؛ القوميات.

المهم هو مهارتك في اللعب، ولا أحد يلعب ألعاب الفيديو أفضل من الجيل الحالي، معدلين أم لا؛ أطفال بمحرك الأقراص مدمج في رؤوسهم بدلًا من المخ!

# زمن الأبطال
# ملحمة كلكامش الجديدة

حبست بجفني المدامع لا تجري
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند أولي النهى
أحب لهم من عيش منقبض الصدر
زجرت طبيبا جس نبضي مداويا
إليك، فما شكواي من مرض يبري
لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقا
وهذا فراق لا يعالج بالصبر
- سعدي الشيرازي

"ما هذا يا بني؟".

سأل البدوي ابنه، وهو ينظر إلى... شيء معدني ضخم يلمع أسفل أشعة الشمس الملتهبة في الصحراء القاحلة.

أجابه الفتى: "يبدو كمحرك طائرة يا أبي".

قال الأب بتعجب : "انها طائرة مقاتلة"!

قال الفتى: "بالطبع لا يا أبتي، إنه فقط المحرك الذي يشغلها"، ثم أشار نحو السماء؛ رأيا تشكيلًا من الطائرات المقاتلة بالقرب منهما، الله وحده يعلم إلى أين هم متجهون. الموجة الأخيرة كما قيل.

قال البدوي بلهجة انتصار: "إذن يمكننا بيعه على هيئة خردة".

قال الفتى محتجًا: "لا يا أبي، أريد الاحتفاظ به"، ثم مرر يده على الغطاء المعدني، فدغدغ جلده الخشن.

قال الأب: "ماذا ستفعل به؟ هل ستبني به منزلاً على الشجرة مثل الاجانب؟" لم يكن لديهم شجرًا في المعسكر لبناء بيتٍ عليه.

أفصح الفتى بدون تفكير: "تجارب!".

كان صبيًا متقد الذهن، وأبيه يعرف ذلك قطعًا. لا ضير من ذلك، مجرد... هواية أخرى من هواياته الغريبة. من الصعب التخلص من تلك التقاليع هذه الأيام، وخصوصًا بين الصغار، كما أن هذا سيبقي ابنه هادئًا حتى موعد الغداء، إذن فليكن.

عشيرته لديها ما يكفي من الجمال لجذب هذا المسخ المعدني والعودة به معهم، بدون إرهاق أي من الحيوانات، لا مانع من هذا المزاح.

أعني، كيف يمكن أن تسوء الأمور؟

***

كان "الشيء" أخف مما توقع، كأنه مصنوع من مادة أخرى غير المعدن، أو ربما مجوف من الداخل.

أصر ابنه مصطفى أن يمتطي هذا الشيء المعدني في طريق عودتهم إلى المعسكر، كان الفتى أخف من الريشة لذا لم يكن عبءً بالنسبة لهم، كما أنه حرص على أن تظل الحبال ملتفة جيدًا حول الجسم المستطيل طيلة الرحلة، كشبكة صيد تجذب حوتًا رماه الموج على الشاطئ، وبدا ابنه كنسخة مصغرة من النبي يونس عليه السلام.

قال مصطفى: "هل يمكن أن أدلف داخله؟"، ثم حاول أن يفتحه، كان يمتلك الأدوات والمعرفة اللازمة لذلك.

قال أبيه رائد وهو ينفض الغبار عن ملابسه: "انتظر حتى الغد". كان لديه أولويات أخرى، فقد توارى أخر شعاع للشمس وراء الأفق، وهما لم يضعا في جوفهما أي شيء طيلة اليوم. الغداء يعد رفاهية في تلك الأيام. سيضطرون لجمع الوجبات في وجبة

واحدة، كما جمعوا الصلوات أثناء رحلتهم، فقصر الصلاة أثناء السفر هي سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

سرعان ما أمسى الغداء رفاهية لسكان المدينة أيضًا، سكان المدينة السابقين.

لم تكن صفوف البدويين متكدسة بهذا الشكل أبدًا عبر التاريخ المكتوب، كان سكان المدن يفرون إلى الصحراء كما لم يحدث من قبل. حسنًا، ليس منذ أيام جدهم الأكبر، النبي إبراهيم عليه السلام. كان التاريخ يعيد نفسه في القرن الواحد والعشرين مع الأسف، أحس رائد بالحزن لذلك.

لهذا السبب كان ابنه الوحيد ذكيًا للغاية. أساتذة جامعيين يعيشون جنبًا إلى جنب مع حثالة الأرض، الأناس الذين يزدروهم ويرغبون في نسيانهم. الله وحده يعلم ما الذي ستصير إليه الأمور فيما بعد.

حان وقت الحديث مع أخته ليرى ما الذي قد أعدته لهما في الموقد الذي يعمل بالطاقة الشمسية.

***

استيقظ مصطفى في منتصف الليل.

لم يستطع انتظار شقشقة فجر اليوم التالي، سيفحص الآلة قبل أن يستيقظ أحد ويدرك ما حدث.

تسلل من فراشه، وأمسك في يده بمصباح طاقة شمسية، وقد علق حول خاصرته حزام الأدوات وجهاز لوحي هولوجرامي.

تلفت حوله ليتأكد من عدم وجود متلصصين بالجوار. كانوا قريبين للغاية من الحدود إيرانية، العدو الفارسي. هذا الجزء من الحطام هو على الأرجح كل ما تبقى من سلاح الجو العراقي.

ولكن الغريب مع ذلك هو أن العلامات على محرك الطائرة ـ إن كان كذلك حقًا ـ كانت بالإنجليزية، ليست العربية ولا الفارسية.

هل كانت طائرات أجنبية هي التي تقاتل طيلة الوقت؟ هذا لن يثير دهشته، فزعمائهم قد باعوا أرضهم مرات عديدة لحمل الآخرين على القتال من أجلهم. ولكن على أيّ حال ليس هذا ما يشغله الآن؛ حان وقت تفكيك هذا الشيء، قطعة بقطعة.

ربما يمكنه أن يصنع منه لوح طاقة شمسية، أو طبق استقبال لإشارات الهواتف الخلوية، أو سيارات لسباقات الرالي، أو صاروخ ليصل إلى النجوم، أو درع من المعدن اللامع... أو... أو...

هناك احتمالات لا نهائية.

شرع على الفور في فك البراغي التي تحفظ هذا الشيء متماسكًا.

***

"ما الذي تفعله عندك أيها الفتى؟ عد إلى هنا على الفور!"

كان أبوه يعرف أين يبحث عنه، فقد استيقظت عمة مصطفى في الليل فراشه شاغرًا، من ان يكون مكروهًا قد ألم به.

ولكن أباه كان يعرف الحقيقة.

"مهلًا يا أبي، لقد أوشكت على الانتهاء..." كان قد فرغ من حل آخر البراغي، عندما اجتاح جسده كله إحساسٌ بالدغدغة.

تسللت هالة مضيئة من شقوق جسد الشيء المعدني، ثم اجتاحها دوامةٌ من أ لوان قوس قزح قبل أن تتحول إلى زوبعة من ضوءٍ ساطح يعمي الأبصار.

***

قال رائد وهو يشعر بالعطش والخوف: "أين نحن؟"

كان الخوف هو الشيء الوحيد الذي يكبح جماح غضبه من مصطفى.

كانا قد استيقظا في النهار، ورأسيهما كأنهما يقرعان بالمطارق، وقد اختفى المعسكر، كأنه لم يكن هناك قط، بلا أدنى أثر، لا خطوات أقدام، ولا بقايا حط النيران، لا خدوش على الرمال، لا قمامة، لا شيء على الاطلاق.

أي سحر هذا؟ حتى لو حدثت غارة كانت لتترك أثرًا؛ جنازير دبابة، خطوات أحذية، صارية علم، مظاريف فارغة من إطلاق النار، رائحة اللحم المحترق، ولكن لم يكن هناك شيءً من ذلك.

يمكنهما أن يستدلا على موضعهما ليلًا، أن يهتديا بالنجوم الخالدة. بالنهار هما ضائعان، والصحراء ذاتها بدت مختلفة، لم تكن مقفرة بالقدر الذي اعتادها عليه.

كان هناك رقعًا من الحشائش هنا وهناك، وكان هناك... آثار، استطاع أن يراها في الأفق، أثار مخالب.

كيف يعقل هذا؟ كان رائد يظن أنه لم يعد من ذئاب في الوقت الحاضر. أما الأسود فهو لم يسمع عنهم سوى في الحكايات وهم متحلقين حول نار المخيم.

وأين هذه الآلة الشيطانية؟

ولكن أولًا وقبل كل شيء عليهما أن يستظلا من الشمس وأن يعثرا على بعض الماء العذب، بدون أن يضيعا أي وقت.

***

قال مصطفى: "أتمنى لو أنني قد أحضرت حقيبتي معي"، ثم تجرع جرعة أخرى من الماء الذي بدا لذيذًا كالعسل بالنسبة لشفتيه الظمآنتين.

قال رائد: "أتمنى لو لم نتورط!"، كان صوته هادئا لا حدة فيه، كان أكثر حيرة من أن يلقي عليه باللوم. كان هناك الكثير من النباتات، فلم تكن هذه واحة مهجورة. بها نبع ماء عذب، وهنالك غزلان بالجوار، قطيع كامل منهم، وهذا ما أقلقه.

فحيثما تكون هناك فرائس، يكون هناك حيوانات مفترسة. ولكن لم يكن معهما أي شيء ـ ولا حتى خنجر ـ ليدافعا به عن نفسيهما.

***

صاح مصطفى بصوتٍ أعلى مما يفترض به: "أنظر يا أبتاه! أثار!".

كانا يسيران عكس اتجاه الرياح، هذا يعني أنه باستطاعتهما شم رائحة أي شيء أمامهما، بينما لا يستطيع أي شيء أمامهما أن يشم رائحتهما.

نظر رائد إلى حيث يشير ابنه، فرأى خطين متجاورين في الرمال، أثار عجلات، وأثار حوافر. عربة يجرها حصان، وقد مضى من هذا القرن ما مضى؟ ربما يكون بائع فاكهة قد ضل طريقه، ولكن هل ابتعد هذا القدر في الصحراء؟

كان صبره ينفد مع مرور كل دقيقة، يجب عليهما مواصلة السير.

أخذ رائد يتشمم الهواء بأنفه.

سأله مصطفى: "ما الأمر يا أبتاه؟"

- أخبار سيئة.

***

لقد أرسله الحكماء، بعد وصول أخبار عن شيء يتربص بهم، وحش يخيف قطعان الماشية وقوافل الجمال التي تغذي المدينة.

هذا أمرٌ خطير، لو تذوق هذا الوحش!! اللحم البشري، لن يكون نهاية لخطره. هذا الحيوان، أيًا كان، لن يكتفي مجددًا بلحم الغزلان أو الماعز أو حتى الخيل. سيزحف وحشٌ أسوء منه أسفل جلده، يجعله متعطشًا للدماء، لن تناسبه أي فريسة بعد الآن سوى الإنسان.

سيبارك الآلهة من يذبح هذا الحيوان، من يخرج إلى البرية حيث لا يجرؤ على العيش إلا الملعونون.

هناك رجل واحد يصلح لهذه المهمة. لقد توسل إليه مجلس الحكماء أن يرتدي درعه المعدني، ولكنهم كانوا يعرفون جيدًا أنه لن يستمع لهم.

لهذا كان هو الأصلح لهذه المهمة.

***

يا للدقة! قال رائد ذلك لنفسه وهو ينظر في رهبة إلى السهم الخشبي البارز مباشرًا من عين الحيوان.

أما مصطفى فقال لنفسه أنه حظ المبتدئين.

تجاهلهما الرجل الملتحي ذو الشعر المموج والعضلات المفتولة. كان اهتمامه منصبًا فقط على غنيمته، وسيفه القصير جنبه، يده ترفرف فوقه. كان يتقدم ببطء ناحية الحيوان، وقوسه معلق وراء ظهره.

قال له مصطفى: "يجب ألا تأكل لحم الحيوانات المفترسة، هذا محرم"، وأراد أن يضيف أن هذا الفعل يفسد التوازن البيئي، ثم قال بثقة: "ألا تعرف تعاليم الدين في هذه المسألة؟"

لم يكن مصطفى بمثل هذه الثقة والأسد يطارده. لقد قفز ناحيتهما من وراء إحدى الكثبان الرملية، فاحتمى الفتى وراء جسد أبيه، قبل أن يأتي سهمًا من حيث لا يدريان لينقذ حياتهما.

من يستخدم الأسهم هذه الآونة؟ في زمنٍ صارت فيه طائرات الأباتشي موضة قديمة، حتى البدو يستخدمون بنادق الطاقة.

قال الفتى: "أنا أتحدث إليك!".

قال رائد موبخًا: "أصمت"، فقد رأى أن أسلوبه يفتقد إلى التهذيب ويفتقد أكثر إلى المنطق.

سار مصطفى ناحية الرجل، و... عربته. كان الرجل يربط الأسد إلى صندوق خشبي، يجره حصانين، ليسا من الخيول العربية على الاطلاق، بل بديا كحيوانات المزارع.

لا عجب أن هذا الرجل ـ الصياد على الأرجح ـ يحتاج إلى قوسٍ وأسهم؛ فهذان الحصانان المسكينان بعبئهما هذا لا يستطيعان أن يسبقا بغلًا.

قوس وأسهم، ورمح ـ العديد من الرماح ـ وفأس، وهراوة، وسيوف، و... لم تكن هذه الأشياء مصنوعة من الحديد، بل بدت مائلة للون الأصفر، مثل البرونز او النحاس. وملابس الرجل؛ كان صدره عارٍ، فالشيء الوحيد الذي يرتديه عدا نعليه كانت تنورة. هل هو من إسكتلندا؟! هل كان الكلتيون ذوي بشرة داكنة وعيون سوداء وشعر مجدول بجدائل صغيرة؟ ولحى بلا شوارب؟

لا شك أنه عربي، بالرغم من بشرته الضاربة إلى الحمرة! وأمير بن قومه، بناءً على الطريقة التي يمشي بها.

سأله مصطفى من دون مناشدة: "هل يمكنك على الأقل أن تأخذنا إلى بلدتك؟"

لم يقل الرجل كلمة واحدة منذ ظهوره، هل يعقل أنه لم يفهم ما نقوله؟

تجاهلهما الصياد وهو يمتطي عربته ويستعد للمغادرة، فلم ينظر ورائه سوى لوهلة واحدة.

بدا أن مصطفى وأبيه ينكمشان في الأفق قبل أن تبدأ عربة الخضروات المتهالكة حتى في الحركة. هكذا تشعر في الصحراء الشاسعة، وحيد وضئيل، وخصوصًا لو لم تكن مسلحًا، على عكس هذا الزميل، بعدته الهجومية المتكاملة.

وكأنه قد قرأ تعبيرات وجهيهما، لمعت نظرة فضولية في عيون الصياد، ثم دعاهما بابتسامة لركوب العربة.

***

لم يكن الرجل وقحًا، ولم يكن فظًا، هو فقط لا يثق في قاطني الصحراء، ناهيك عن أولئك الذين يرتدون ملابس غريبة ولا توجد قبيلة كاملة في أعقابهما. كما أنه لم يستطع فهم ما يقولانه.

لم يستطع فهم كلمة واحدة من حديثهما، فقد بدت له الكلمات كأنها عطاس.

في رحلة عودتهم على الطريق الوعر، استطاع إدراك أن ما يخرج من فمهما هو كلمات، وخصيصا من فم الفتى الصغير الذي بدا أنه لا يصمت أبدًا. حقًا، الأطفال دومًا هم الأكثر تلهفًا إلى المعرفة. الآن يعرف شعور والده عندما كان في مثل هذا السن الشيطاني.

ولكن الغريب هو أنه رغم عدم تكلمه بلغتهما، وعدم تكلمها بلغته؛ إلا أن بعض الكلمات بدت مألوفة بشكلٍ غريب، مشوهة كأنها حديث شخصٍ أبله.

أثارت عجلات العربة الغبار وهي تقطع طريقها نحو المدينة البعيدة التي تلوح في الأفق. عندما صارت المدينة أخيرًا على مرمى البصر أحس مصطفى أنها مجرد سراب، ولكنه غير رأيه عندما رأى البوابات الخشبية العظيمة تفتح، كوحش فاغر فاه لابتلاعهم.

خرجت العذارى من الأزقة لتمطرنهم ببتلات الزهور، بينما الفتيات الأخريات يلوحن بسعف النخيل أو يطرقن بلا هوادة على دفوف صغيرة، كان سن معظمهن لا يزيد عن سن الفتى الصغير.

ماذا كان اسمه؟ موسـ ـ طا ـ فا، أو شيء من هذا القبيل، هكذا فكر الملك. سيحب الفتى المكان هنا، الجميع مرحب بهم داخل أسوار المدينة، الجدران التي بناها هو، شريطة أن يثبتوا حسن نيتهم.

وإلا فإنهم سيصلبون على أسوار المدينة ذاتها، كعبرةٍ لمن يعتبر.

سأل مصطفى أبيه بصوتٍ هامس: "أين نحن يا أبي؟"

أجابه رائد: "وكيف يمكنني أن أعرف؟ وما هذه الأكواخ الطينية التي يزعمون أنها بيوت؟ ألم يسمعوا من قبل عن الخرسانة المسلحة؟"

"لا أعتقد أنهم قد سمعوا عن الحديد من قبل يا أبي، ناهيك عن الاسمنت".

كان الفتيات اللاتي يؤدين الهتافات لديهن وشوم على وجناتهن، كان هذا مألوفًا بما يكفي، لم يستطع مصطفى مقاومة الابتسام لإحداهن.

كان الرجال جميعًا ملتحون بغض النظر عن عمرهم، وكانت اللحى مؤلفة من تلك الجدائل الصغيرة للغاية، مما جعلها تبدو كآلات أكورديون الموسيقية. وكان الرجال جميعًا قصار وممتلئ الجسم، ببشرةٍ بيضاء شاحبة، ووجوه سمينة ممتلئة، كتلك التي رأوها في الأفلام الأمريكية.

أخذهم الرجل، الصياد، إلى ساحةٍ عامة، وأرسل الأسد مع من خمن مصطفى أنهم خدمه، لا شك أنه سيصير تذكار انتصار، ثم ألقى خطبة إلى الحشد المجتمع ـ لم يكن هناك الكثير منهم في الواقع، لقد رأى مصطفى مدنًا أكبر من قبل ـ واومأ إلى ضيوفه.

يا لها من لغةٍ غريبة. استطاع مصطفى أن يميز كلمة أو كلمتين قد تكونان من اللغة العربية، ولكن البقية لم تكن سوى ثرثرة بلا معنى بالنسبة له ولوالده.

المحطة التالية كانت بيت الرجل، قصر بالمقارنة مع الأكواخ الطينية، يخدمه الفتيان والفتيات.

ما أثار انبهارهما عندما دلفا إلى المكان لم يكن الصناديق البرونزية، ولا الدروع والسيوف ـ الأشبه بالسكاكين ـ المعلقة على الحوائط، ولا البلاط الخزفي على الأرض؛ بل كانت أصص النباتات. دومًا ما تلفت الحياة النباتية اهتمام البدوي. أشجار النخيل تزين المدينة مثل المآذن في عالمهما، والحقول الخضراء

تصافح أعينهما في الأفق. الحياة تبدو يسيرة هنا، لا شك أن المأدبة التي سيدعوان إليها ستكون مشبعة بالفاكهة الغريبة.

***

لم يكن هناك سوى الخضراوات، غير مقطعة، وكمثرى فقط.

كان اللحم جيدًا رغم ذلك؛ لحم ضأن مشوي، ولحم ماعز، وغزلان، ودواجن من أنواع مختلفة لم يريانها أو يتذوقانها من قبل، ولحم الأسد الذي تجنبه كلاهما. كان الرجل كريمًا، فقد دعا جميع رجال البلدة تقريبًا. لم يكتف بدعوة التجار والكهان والنبلاء، ولكن كذلك الحرفيين والمزارعين ومن بدا أنهم متسولين. كان الجميع في موضع ترحيب في مسكنه المتواضع.

جلس الرجل على وسادة على الأرض مثل الجميع، لم يكن هناك مقاعد، ناهيك عن عرشٍ. لم يكن هناك حراس واقفين في أي مكان، ولمح مصطفى شحاذًا يختلس طبقًا نحاسيًا صغيرًا.

كان الخبز... غريبًا، لم يبد مذاقه مثل أي شيء يعرفانه، وكان منفوشًا للغاية. ولم يكن هناك أرز! ولا توابل، لا كمون ولا كركم ولا ملح ولا فلفل. كم يمكن لأناس بمثل هذا الثراء أن يكونوا عديمي التذوق هكذا؟

كانت التمور جيدًا جيدة كما هو متوقع، وكان متعدد الأشكال والأحجام والملمس حسب مدى نضجه. أما المشروبات فقد قدمت في أقداح غريبة الشكل كرؤوس الكباش، وكان طعمها مثيرًا للريبة. تذوق والد مصطفى عينة منها أولًا، ثم حذر ابنه، واكتفيا بشرب الماء ولبن الماعز. لماذا لا يوجد جبن؟ من في كامل قواه العقلية يمكنه الحصول على لبن ولا يحوله إلى جبن؟ ما هذه البدائية!

كان الترفيه جيدًا أيضًا، مع انه لا يشبه أي شيء اعتادا عليه في المعسكر؛ فتيات راقصات وغناء وأناشيد، وهناك تلك الدفوف الصغيرة الصاخبة والآلات الوترية الغريبة التي تعبث بأعصابك.

(أخذ والد مصطفى يغطي عينيّ الفتى، وكان هو يتمنى لو غطى أذنيه بدلًا من ذلك).

مر الوقت مع استمرار المزيد والمزيد من الأكل والمحادثات والمرح، حتى أوشك اليوم أخيرًا على الانتهاء.

كل شيء لم يؤكل حُمل خارجًا لإطعام الفقراء ـ اللحم خصيصًا ـ وعندما لم يعد هناك فقراء لإطعامهم حمل ما تبقى من خبزٍ وخضروات إلى الدواجن والماشية.

أدرك مصطفى السبب وراء ذلك، إنهم لا يملكون ثلاجات في تلك المنطقة النائية، لذا فكل شيء سيكون مصيره النفايات إن لم يؤكل وعلى الفور، ومن الواضح أن هذا الرجل أنه أكثر من مجرد صياد، إنه شيخ هذه المدينة، ولا يمكنه أن يقف مكتوف الأيدي وهناك جائع في قومه.

كان رجلٌ تسري في عروقه دماءٌ نبيلة، ويفضل أن يجوع هو على أن يشاهد قومه يعانون.

بعض الأشياء لا تتغير أبدًا، ولا يجب أن تتغير، هكذا فكر مصطفى بابتهاج وهو يتوجه إلى الفراش كي يخلد إلى النوم بين ذراعيّ أبيه.

إنه سيحب العيش هنا، أيًا كان هذا المكان!

***

كانوا محاطين بالكهنة، والسحرة، يطوقونهم مثل أنشوطة حبل مشنقة بشرية. عبقت الرائحة العطرية الهواء، وعلقت بملابسهم مثل ندى الصباح الباكر.

كان جهاز مصطفى اللوحي (الذي يعمل بالطاقة الشمسية) قد أطلق تنبيه إيقاظ في الصباح، ولم يوقظ صوت الأزيز الفتى من نومه وحسب، ولكنه قد جذب الخدم الذين لم يستطيعوا استيعاب الصورة ثلاثية الأبعاد المنبعثة مما قد ظنوا أنه لوح طيني.

الآن لم يعد مضيفهم مرحبًا كذي قبل.

كان جالسًا في منتصف الدائرة، أمام مصطفى ورائد، متوسدًا جائزة الأمس، فراء الأسد. كانت رأس الوحش تشير إليهما، وأنيابه حادة كالخناجر، مثل أول مرة رأوه فيها، وهو يقفز ناحيتها بكل ضراوته وبراعته، قبل أن يسقطه... التعبير الغاضب المترسم على وجه الصياد قطع سحب الحديث المتبادل بين الرجال. كان يشعر أنه تم غدره، هذان الضيفان هما جاسوسان أرسلا إلى هنا ليخدعاه كي يفشي أسرار دفاعات المدينة. لقد سببا له حرجًا عظيمًا، استطاع مصطفى إدراك ذلك من التعبير المرتسم على وجهه.

لو كان باستطاعته فقط أن يتواصل معهم؛ سيتيقنون أن الأمر كله مجرد سوء تفاهم. كيف يمكنه أن يقول "جهاز لوحي" بلغتهم؟

الجهاز اللوحي هو مفتاح الحل.

يحتاج مصطفى إلى عينة مكتوبة من لغتهم ليستطيع البحث عنها على الجهاز كي يجد المفردات الأساسية ويضعها جنبًا إلى جنب لتكوين جملًا مفهومة. كان موقنًا في أعماق قلبه أنهما يتحدثان لغة مشتركة، ولكن الزمان والمسافة قد فرقا لهجتيهما.

تقدم ناحية شيخ المدينة، مضيفهما الكريم، وأراه الجهاز، ثم كتب عليه في عجالة بعض الكلمات العربية من اليمين إلى اليسار. التمعت عينا الرجل واسترخت ملامحه، لقد فهم، فقومه أيضًا يكتبون من اليمين إلى اليسار، رغم أنه لم يفهم أحرف اللغة العربية المتشابكة.

ألقى أمرًا ما على أحد خدمه، وبعد وقتٍ قصير أحضر له لوح طيني وعود خشبي مدبب، استخدمه في كتابة بعض الحروف على اللوح الطيني الذي ما يزال رطبًا.

صاح مصطفى: "أبي! إنها المسمارية!".

المسمارية؟ لم يستطع رائد أن يصدق أذنيه! لم يعد أحد يستخدم هذه اللغة في العصر الحديث في أي مكان في العراق. ما يزال الأشوريون والكلدانيون المسيحيون يتحدثون لغتهم القديمة في بعض الأماكن المعزولة في الدولة، ولكن حتى هم يستخدمون كتابة قريبه إلى الخط العربي؛ لا شيء يشبه هذه، أقدم لغة مكتوبة غير مصورة في العالم.

بحث الفتى عن اللغة المسمارية في المكتبة الصوتية على جهازه اللوحي، واستخرج الأصوات والمصطلحات الموازية لها في اللغة العربية، ولكنه احتاج أن يساعده أبيه لفعل ذلك. كانت نقطة تفوق مصطفى هي الرياضيات والهندسة، لا الشعر والخطابة مثل أبيه.

"بالله عليك يا أبي، لا يوجد ما تخشاه، نحن هنا وسط أصدقائنا، قومنا".

خطا رائد خطوة مترددة ناحية مضيفهم، الرجل الذي بدا الآن نساخ متعلم يتلقى بإخلاص دروس معلمه لا قاهر وحوش أو سيد قومه.

***

عمل الكهان على تنقيتهما بالأعشاب والماء المقدس وهم يتمتمون بصلواتهم، بينما السحرة يتلون التعاويذ ويلقون أجسامًا منحوتة حولهما لدرء الأروح الشريرة.

حاولوا اقناع الملك أن يغادر منزله ويتخذ مسكنًا في مكانٍ آخر، حتى يتأكدوا أن هذين الإثنين ليسا مصدر خطر، ولكن الرجل لم يقبل ذلك. لقد واجه الأعداء وجهًا لوجه، ورفض تصديق أن هذا الرجل وابنه الصاخب عدوان، قد يكونا مباركان من الآلهة، أو ملعونان، ولكنهما ليسا عدوان من وجهة نظره.

كبّر مصطفى الإسقاطات الهولوجرامية التي تمثل الحروف العربية جنبًا إلى جنب مع ما يقابلها من لغة الرجل ـ التي اتضح أنها الأكادية ـ وجعل أبيه ينطق الحروف، وتراكيب هذه الحروف. عندما أخفق كل شيء آخر، استخدم الفتى قاعدة البيانات البصرية على جهازه اللوحي ليري الملك صور أشياء ويطلب من أبيه أن ينطق الاسم العربي، بينما الملك يتحدث بالأكادية.

اتضح أن اللغتان ليسا مختلفتان كثيرًا كما كان يتوقع الطرفان؛ فلديهما جذور لغوية مشتركة، وكلمات وقواعد وحتى تعبيرات متشابهة. كانت العربية أكثر رقيًا وصقلًا، والأكادية حلقية أكثر وتدخل مباشرةً إلى صلب الموضوع (مثل موسيقاهم المزعجة إلى حدٍ كبير)، ولكن هناك نقط التقاء كافية لينسجم العربي التقليدي والأكادي التقليدي سويًا من دون أن يتناحرا.

ولكن الكتابة كانت أمرًا مختلفًا تمامًا، فالكلمات الأكادية مجزأة مثل لحاهم، ومسائلهم الحسابية مرهقة.

كانت الشمس على وشك أن تتوارى وراء الأفق، سيكون هذا أفضل بكثير، طلب مصطفى إحضار المنجمين ليتمكنوا من مقارنة البيانات. كان أبيه يحفظ الكوكبات النجمية عن ظهر قلب، ولدى ابنه قاعدة بيانات فلكية محملة على جهازه مما سيمكنهما من تحديد مكانهما، والأهم هو تحديد الزمان الذي هما فيه.

***

"أعدنا في الزمن إلى هذا الحد؟" قالها رائد وقد سرت في جسده قشعريرة باردة.

لم يكن لديه فكرة أن محركات الطائرات باستطاعتها العودة في الزمن، لا عجب أن الكثير من الطائرات قد اختفت فوق مثلث برمودا، هكذا قال لنفسه.

أما مصطفى فقد أدرك الأمر بشكلٍ أفضل، هذا لم يكن محرك طائرة، بل سلاح سري طوره الأمريكان، في محاولة فاترة لمساعدة حلفائهم، العراقيين، في حربهم العظمى الأخيرة مع... الفرس.

الشيء الوحيد الذي أصابه بالذهول هو كيف أن يد القدر قد أخذتهم إلى هذا المكان من بين كل الأماكن، وإلى هذا الزمان، في حضرة رجل ومكان أسطوريين، كلكامش ـ كما يطلق عليه في اللغة العربية الفصحى ـ من مدينة أوروك. لم تكن هذه مجرد مصادفة من وجهة نظر مصطفى.

هذا هو الرجل الذي يحلمون به، الرجل الذي سيعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، لو استطاع فقط أن يتصل باليوتيوب ويريه ما حدث لأرضه الحبيبة، في زمانهما، يمكنهما أن يغيرا كل شيء.

***

"ما تتحدث عنه ليس ممكنًا"، قالها كلكامش بلغته العربية الثقيلة.

"ولكنه ممكن، أنظر إلينا، أنظر إلى هذا"، أشار الفتى إلى الجهاز اللوحي. كان ذلك في اليوم التالي، وقد أعاد مصطفى شحن جهازه في الشمس، عندما سمحت الغيوم بذلك.

قال الرجل الجليل في تحدٍ: "سحر".

قال مصطفى في تحدٍ مماثل: "علم".

"إنهما الشيء ذاته؛ نحن ننظر إلى النجوم لنرى المستقبل، وأنت من المستقبل، أو هكذا تزعم، ومن زمنٍ... لا أتخيل أن العالم سوف يستمر طويلًا إلى هذا الحد." هل سيظل هناك هواء لتتنفسه في المستقبل البعيد؟ ألن يكون قد استُهلِك حينها؟ وبالتأكيد ستصير الأرض مجدبة حينها ويتبخر الماء في الهواء، وتصير التربة مالحة، والقشرة الأرضية هشة، وينمسخ الحيوانات والنباتات و... البشر إلى أقزام؛ فكيف يمكن لهؤلاء الناس من المستقبل أن يكونوا طوال القامة ونحيل العضلات بالمقارنة مع البشر الأوليين الأفذاذ الموجودين الآن؟

في الحقيقة كان رائد يفكر في الأمر ذاته الذي يفكر فيه الملك الجليل، لقد تربى على الأساطير التي تروي عن عمالقة ساروا على الأرض يومًا، وأن آدم نفسه كان عملاقًا، وأن البشر في الماضي

عاشوا في قصور ذهبية وشربوا من أنهار من اللّيْم، وكانوا محاطين برمالٍ من الياقوت واللؤلؤ. من الواضح أن الحكايات ليست حقيقية في هذا العصر، رغم حياتهم المترفة؛ حتى خواتهم وأساورهم الذهبية تبدو كأسلاك من النحاس، ولم تكن ملابسهم مريحة كما يبدو عليا.

لقد جرب ارتداء ملابسهم وكل ما أحس به هو "الحكة"، أما هم من جانبهم فكانوا يفحصون ملابسهم بتعجب، ملابس بدوية بسيطة ـ صنعت في الصين ـ كانت ناعمة الملمس في يدهم ومحاكة بطريقة معقدة لا يستطيعون استيعابها، مما أقنع الكهنة والعرافين أنها ـ مجددًا ـ شبحان من عالمٍ آخر، حيث ينقض عليك البوم من الأعالِ لينتزع روحك، ويجذبها إلى ارض الظلال.

كان الملك يقلب الأمر في رأسه، مفكرًا فيما أخبراه به، عن عالمهما.

دولتهما جثة مريضة ملقاة في الصحراء، تنهشها النسور، جيران الأرض نفسهم، وليس فقط من يتحدثون لغة مختلفة عنهم؛ لا يستطيع أن يتخيل مثل هذا المصير. أن نوع لعين من البشر يقبل بهذا العار؟ ألا يوجد رجال في هذا العصر الآخر؟ إنه سيقبل التضحية بحياته من أجل قومه، وهم سيفعلون المثل من أجله، وسويًا سيردعان كل من تسول له نفسه المساس بالمدينة.

ما يتحدثون عنه يتخطى حدود المعقول، ولكن من أي مكان آخر يمكن أن يكونوا قد أتوا؟ ولم يكن فقط اللوح الطيني الذي يكتب عليه الفتى، بل كان معه كرة تتوهج في الظلام ولكن لا ينبعث منها أي حرارة، وكانت مصنوعة من معدن فضي لا يستطيع التعرف عليه، وأدوات من المعدن ذاته يمكنها تفكيك أي شيء معدني.

أي أشباح يمكنهم أن يكونوا مسلحين بالمعدن؟ أي أشباح يحتاجون إلى الأكل والنوم، ويحتاجون إلى طاقة الشمس لتشغيل أجهزتهم السحرية؟ يحافظ الأشباح على بقائهم بالاعتماد على الظلام، الجميع يعرفون ذلك.

ماذا يجب أن يفعل؟ ما الذي يمكن أن يفعله أي أحد؟

***

قال الملك بصوتٍ أجش: "لن أهاجم جيراني من أجل شيء قد يفعلوه وقد لا يفعلوه في المستقبل، هذا فعلٌ جبان".

قال مصطفى محتجًا: "ولكنهم سيهاجموننا، لقد أخبرتك بذ...".

قال الملك موبخًا: "لا يوجد قدر محتوم، أنت بنفسك قلت ذلك".

ما يحسب للفتى أنه قد أقنعه بذلك على أقل تقدير، ما الذي قاله الفتى؟

*هناك إلهٌ واحد وقد ترك القدر كتابًا مفتوحًا لنا، إن كان قد قضى بأن المستقبل لا يمكن أن يتغير؛ إذن لم نكن لنستطيع أن نقطع هذه الرحلة. إن مستقبلكم هو ماضينا، تمامًا كما أن مستقبلنا سيصير ماضيًا بالنسبة لهؤلاء الذين سيأتون بعدنا، الله في السماء يرشدنا، يرينا الطريق الصحيح، لا أكثر. نحن من يجب علينا أن نقطعه.*

كان الفتى حكيمًا بشكل يفوق سنوات عمره، وإن كان مندفعًا بعض الشيء.

***

"هل يمكننا على الأقل أن نعقد مجلس حرب؟" كان مصطفى يلح في الأمر مجددًا.

تبادل الملك والبدوي نظرةً متفهمة، كان هناك عصور تفصل بينهم ولكن الآباء يعانون معاناةٍ مماثلة في مختلف العصور.

حان الوقت لتعليم الفتى سنن الكون التي لا تتغير.

ربت الملك على ركبته وقال: "تعال هنا أيها الصغير مصطفى".

نظر الفتى إلى أبيه، فأومأ له برأس مشجعًا.

جلس مصطفى على "على ركبة الملك" او "على ركبنه"، وقد أحس أنه غير جدير بذلك.

قال الملك الجليل: "اسألني سؤالًا".

"عن ماذا؟"

"لماذا بنيت سورًا عظيمًا يحيط بنا، بمدينتي الحبيبة؟".

"لإبقاء الأسود خارجها"، هذا كل ما استطاع مصطفى التفكير فيه.

عندها ضحك كلكامش، كان من الرائع رؤية أن الضحك، وكذلك الأصوات المعبرة عن الحزن، لم تتغير، مهما عدت بالزمن.

قال الملك أخيرًا بعدما تمالك نفسه: "لقد بنيت هذا السور لإبقاء الأسود بالداخل، إن جاز التعبير".

"أنا... لا أفهم أيها الملك الجليل".

تبادل كلكامش نظرةً أخرى مع والد الفتى، فرائد بسبب كونه بدوي فهم كل شيء على الفور.

"أنا ملك هذا حقيقي... شيخ، كما تقول، ولكن حتى الملك ليس لديه سوى مساحة معينة من السلطة لأداء وظيفته، لقد اختراني الحكماء لأحافظ على السلام، ولكي أقاتل أعدائنا؛ ولكن بوسعي إخبارك بذلك، ليس كل أعدائنا يقعوا وراء بوابات المدينة. هؤلاء الذين يتخيلون أعداءً حيث لا يوجدون، فينفقون ويلتهمون أكثر مما يستطيعون، حتى تنفجر أمعائهم، وقد ينفقون كل مواردنا، وشباب مدينتنا، بلا طائل، وهم يطاردون أشباحًا لا توجد إلا في ظلمات قلوبهم. السور موجود هناك ليبقى طموح الإنسان في حدود متناوله." ثم صمت قليلًا، ليتذكر كلمات الفتى، قبل أن يكمل: "قدر العالم قد لا يكون محتومًا، ولكن هذا لا يعني

أنه باستطاعتنا تقرير أي قدر سيكون. اختبار الرجل الحقيقي هو أن يعرف حدوده".

كاد مصطفى أن ينفجر في البكاء، ولكنه تمالك نفسه وقال: "إذن باستطاعتنا بناء سور عظيم، حول دولتي؟".

"حسبما أخبرتنا، فهذا سيكون غير ذي نفع في زمنك، فأنتم لديكم عربات معدنية يمكنها أن تطير في الهواء، ومقاليع تطلق النار باستطاعتها تجاوز أي سور مهما كان ارتفاعه".

"إذن، ما الذي يمكننا فعله؟".

"أول قاعدة في القتال هي ألا تواجه عدوًا تعرف أنك لا تستطيع الانتصار عليه؛ لا يوجد أي عار في الانسحاب من ساحة القتال".

قال رائد: "هذا هو منهج البدو يا مولاي".

قال مصطفى بسذاجة: "إذن ماذا يفترض أن نفعل، أن نشق طريقنا عبر أنفاقٍ أسفل الأرض؟"

قال الرجل، الملك: "لا شيء دراماتيكي للغاية، هل تعرف بشأن مشروعي البنائي الآخر؟" ثم غمز له بعينه.

عرف مصطفى بالضبط ما الذي يتحدث عنه.

***

أحس رائد بالرعب مما رآه، كيف يمكن لشيء أن يكون كبيرًا إلى هذا الحد؟

أحس كأنه يبتلعه دفعة واحدة، والأرض أسفل قدميه تصير كالعجين. لقد قرأ عنه، ورأى صوره في التلفزيون الهولوجرامي، ولكن لا شيء يمكن أن يعدك لمثل هذا الشيء الهائل.

كان ابنه أعلم. أنها فقط بركة ضفادع مقارنة بما ينتظرهما. إنهما سيصيران نوعا جديدا تماما من العرب.

***

"هل أنت متأكد أن هذا سينجح أيها الملك الجليل؟" سأله البدوي هذا السؤال للمرة الألف.

"ليس لدينا خيار سوى المحاولة. هل تظن أنه من قبيل المصادفة أن الآلة التي جلبتكما إلى هنا لم تأت معكما؟ لتحرمنا من الطريقة الوحيدة للمعرفة؟ الشيء الذي يستطيع أن يسافر بك إلى الوراء يمكنه بالتأكيد أن يأخذك إلى الأمام".

لم يعرف رائد ماذا يقول.

"أنت بدوي، فلتنظر إلى الأمر بهذه الطريقة؛ أليس الجمل سفينة الصحراء؟".

اومأ رائد برأسه.

"لقد أتى أسلافي من الصحراء، لأن أسلافهم لجئوا إلى هناك بعدما أعماهم غرورهم البشري، فقد اعتصروا الحياة من الأرض حتى أحالوها إلى الصحراء التي حاولوا الهرب منها، كما فعل أسلافهم". حماقة البشر هي هوة بلا قاع.

قال رائد: "لماذا لا نتوجه إلى الصحراء مجددًا يا مولاي؟ إنها خيارًا أكثر أمانًا".

"لا، يجب أن نفاجئ أعدائنا مرة واحدة وإلى الأبد". وإذا بقيت في الصحراء فترة طويلة، بدون طين لتكتب عليه ماذا الذي تعلمته ومن أين أتيت، ستنسى من أنت، وتتحول إلى وحش. أبقى كلكامش هذا لنفسه، فلم يرغب في الإساءة إلى صديقه البدوي.

سأله رائد: "إذن لماذا نذهب من دون علم مجلس الحكماء؟".

هز كلكامش كتفيه ـ إذن لديهم هذه الحركة حتى في هذا الزمن ـ وقال: "لأنهم لن يفهمون، وسيعارضون القرار بضراوة، أو يوشون بنا إلى أعدائنا. لا تشغل بالك، فأنا لن أكسر أي قانون كتب في الحجر". ثم أضاف في صمتٍ لنفسه، الشكر للسماوات أننا نستخدم الطين، فأي قانون يكتبه البشر من الممكن إعادة كتابته، ما لم يضع الطين في أتون النار.

"ولكن أنت أسطورة أيها الملك الجليل".

"هذا هو طريق سقوط أي رجل. دعهم ينشرون الأكاذيب عني، عن غطرستي، عن وقوفي في وجه الآلهة وإهانتهم. لقد أديت دوري. لا يوجد مدينة تستمر إلى الأبد، رغم أنه يؤلمني قول ذلك. سأبحث في الخارج عن مراعٍ أكثر خضرة، وأحمل معي من قومي من يرغب في أن يتبعني نحو المجهول بإرادته الحرة".

"أين ستكون محطتنا الأولى أيها الملك الجليل؟".

"أنت الرائد يا رائد، وأنا أثق في حكمك". كانت عربية الملك تتحسن مع كل يوم، كان قادرًا على استيعاب المعنى الحقيقي لكلمة رائد.

أجابه رائد في تواضع: "أنا أثق في حكم ابني، هو من اختارته يد القدر، كما أنبأ اسمه. لقد ماتت زوجتي أثناء ولادته، وكانت أمنيتها دوما أن تسمي ولدنا ـ كانت واثقة أنه ولد ـ على اسم... نبينا"، ثم أضاف مؤكدّا: "في نهاية الأمر الصغير دومًا هو من يقود

الكبير؛ إنهم المستقبل. نستطيع فقط أن نرشدهم إلى الطريق، بمساعدة النجوم".

أكمل الملك جملته: "وبمساعدة خرائط ابنك اللوحية".

***

قال مصطفى بفخر: "البدوي يجيد استخدام ما يقع في يديه من موارد". كان قد تكيف على الوحش الخشبي الذي صار يمتطيه أسرع من أي واحد فيهم، حتى الملك. لم يفرق دوار البحر بين الحاكم والمحكوم، كما لم يفرق الأسد بينهما من قبل. "أرى أن ننقذ ما يمكننا إنقاذه قبل أن يدمر زحف الزمن كل أثر للبشر العظماء الذين يشابهوننا التفكير".

قال رائد بحدة: "إذن ما هي محطتنا التالية؟" فقد أصابه التعب من كل هذه الألغاز. كان يفضل الهند، للحصول على

التوابل التي يحتاجونها بشدة لتحسين مخزونهم من الطعام عديم النكهة.

نقر الفتى على جهازه اللوحي حتى عثر على الخريطة التي كان يبحث عنها، وكبر صورتها الهولوجرامية من كل الاتجاهات.

قال كلكامش في تعجب: "بلاد فارس!" كان هذا آخر شيء يتوقعه من مثل هذا الفتى المفعم بالحماسة الزائدة.

قال مصطفى بانتصار: "عيلام على وجه التحديد، وفي الوقت المناسب تماما، قبل أن يجد الأشوريين فرصة لتدميرها بوقتٍ طويل".

## الخاتمة

جلس شابًا في القرن الثاني والعشرين على طاولة في الكلية الحربية منفردًا بنفسه، وهو يتصفح أوراق المخطوطة لسجلات كلكامش. لقد أرخوا لمآثر الشتات المهاجرين من مدينة أوروك، الذين تفرقوا في أنحاء العالم، في عملية هجرة لم يشهد العالم مثيل لها من قبل ولا من بعد.

كانت مراكب في مثل عظمة المراكب التي بناها الفينيقيون ـ أو تفوقها عظمة ـ بهياكل خشبية عميقة لتخزين الطعام والماء، ليشقوا طريقهم إلى أركان الأرض الأربعة، ليبنوا إمبراطورية بحرية تربطها التجارة واللغة. إنهم لم يفعلون أي شيء رغم ذلك، لم يعكروا صفو السلام في أي مكان، لم يشاركوا الأمم في ألعابها السياسية، فقد ظلوا منغلقين على أنفسهم، فلا يختلفون كثيرًا عن مجتمعات التجار الصينيين حول العالم، يعملون في صمت.

كان الأمر كأنهم ينتظرون الوقت المناسب.

لقد عادوا فقط لتخليص وطنهم الأم ـ تجاهلوه طيلة هذه القرون، وآلاف السنين، خشية من تغيير مجرى التاريخ قبل الوقت المناسب ـ وأنقذوا العالم القديم قدم التاريخ.

ليس عن طريق العنف بالمناسبة، بل بالتوازن بين العنف والإبداع، إنهم تجار على كل حال، ولكنهم تجار يحملون على عاتقهم مهمة؛ أن يشترون ما تعرض الأمم الأخرى بيعه، من ناحية المعرفة والتقاليد، يتوارثون الاختراعات على متن قواربهم الطويلة، وكلها مخفية عن أعين علماء العالم الذي سيسخرون هذه المعرفة من أجل المكاسب العسكرية.

بدون إطلاق رصاصة واحدة، استطاعوا تحرير وطنهم من التدخل الأجنبي، وأعادوا تعزيز سكانه وحضارته، وتحدوا جيرانهم في لعبة الذكاء والاختراعات، وفي الوقت المناسب أيضًا.

تم ارسال قاذفة قنابل أمريكية أخرى، طائرة قاذفة الشبح (متخفية من الرادار) هذه المرة، مع حمولة قاتلة ثانية. (لقد رفعت

السرية عن هذه الملفات للتو). أداة إزاحة زمنية، الغرض منها هو محو أثر أفعال أيًا ما... أيًا من تجرء ووقف في طريق القوة التي كان يجب أن تسود. لإخفائهم من التاريخ، مع كل إنجازاتهم، تدمير تاريخ منطقة قديمة وهامة من العالم مثل الشرق الأدنى، القلب نابض للعالم.

وحدهم الأمريكيين متعجرفين بما يكفي لفعل شيء كهذا، يعتقدون أن التاريخ الذي قد جرى قبلهم لا يعنيهم بشيء، ولن يؤثر عليهم. ولكنه كان يفهم حقيقة الأمر بشكلٍ أفضل.

إذا انفجرت القنبلة في إيران، كما كان مقدرًا لها، لما كان هناك كورش الكبير ولا إعلانه العالمي لحقوق الإنسان والتسامح الديني والمساواة. إذا تحطمت الطائرة ـ مثل سابقتها ـ داخل الحدود العراقية المتزعزعة، إذن كلكامش وحمورابي والقنوات المائية ونظام الأربعة وعشرين ساعة وعلم الفلك والقيثارة والمذهب الذري وكل هذا سيُبتَلع.

مع كبح جماح الإيرانيين، استُدْعيت الطائرة المقاتلة المتخفية، وأوقِف مشروع إزاحة الزمن، وحفظ كنز الذكريات التاريخية الواقع بين النهرين إلى الأبد.

عندها بدأ التاريخ يتغير للأفضل، في كل بقعة من الأرض، شتات كلكامش (أو جلجامش كما كان يعرف في الغرب، حتى صحح أحفاده السجلات) شقوا طريقهم من الشرق الأوسط إلى الخارج، مستخدمين معرفتهم الدقيقة بما حدث حقا في زمن داوود وسليمان (عليهما السلام) ليضعوا نهاية لجرائم المستعمرات الصهيونية بشكل قاطع ونهائي. لقد تحولوا من وسطاء سلام إلى محررين إلى حافظي الثقة العامة، بينما المؤرخين من كل أنحاء الأرض يتوافدون على شواطئهم ليشربوا من نبع الحكمة القديمة الذي تدفق مجددا. كان هناك أوراق مخطوطات من بيت الحكمة (متضمنة كتاب ماني ذو الصور المحظورة) ومن مكتبات سمرقند وبخارى. كان هناك لفائف بردي من مكتبة الإسكندرية ـ التي لم

يدمرها المسلمين أو الأقباط ـ ومنها سجلات الكاهن برصوص (العالم كان أكثر قدما مما يعتقدون) إلى أسرار التحنيط والطب المصري القديم إلى النصوص الكاملة لديموقريطوس وطاليس وأرسطرخس. كان هناك الأعمال الضائعة للناسخين مدن ماتشو بيتشو ونالندا... كلها كان المقدر لها أن ينفض عنها التراب وترمم لكي يراها الجميع. لقد نهض العالم أخيرا من نسيانه القديم، ولن يعود إليه أبدا.

لهذا قرر الالتحاق بالكلية الحربية. الكلية الحربية في تكساس. ليتعلم من الماضي، كيفية تجنب الحرب، ومنع حدوث أي مجابهة زمنية أخرى، هذه المرة بين التحالف القوقازي الأمريكي الكندي، واتحاد الأزتك والإنكا المعاد إحيائه في الجنوب.

كان تكساس هي خط المجابهة، خط مجابهة صحراوي متزعزع آخر، وهو من سيجنب الناس على جانبيّ الحدود العديد من الويلات، وهو يعرف يقينًا أنه الرجل المناسب لفعل ذلك.

لقد فصحوا حمضه النووي عند تجنيده أول الأمر وتحديد عرق أسلافه، فعثروا على آثار لدماء أكادية وعربية. مزيج أصيل كمزيج العربية والمسمارية في الكتاب العظيم الذي يقرأه، وهي اللغة المشتركة الجديدة للعالم المتحضر.

معرفة هذا النسب النبيل وحجم المسؤوليات التي يحملها على عاتقه قد نمت في نفسه. ليست مختلفة عن مستودع المعرفة الذي جمعه الشتات من كل الحضارات التي لاقوها، قبل أن تنهار هذه الحضارات على إثر الاحتلال أو الطاعون أو الكوارث الطبيعية أو الحروب الأهلية.

إنه يحمل هذا في دمائه، أن يصنع قدره بنفسه.

# استبدال الخواطر

كان مدير جامعة الخرطوم (شمال السودان)، عام ٢٠٢٣، يُشاهد التلفاز العتيق ذو الشاشة المُسطحة الذي يعمل بأنبوب شعاع الكاثود في مكتبه الفوضوي، لم يستطع أن يصدق. بعد كل هذا الحزن، وسفك الدماء والألغام والحصار والتغطية الصحفية العالمية والقرارات الدولية، عاد جنوب السودان أخيرًا إلى حظيرة الوطن.

لكن، وبعد فوات الأوان، اضطروا لإلغاء كل التخصصات المُرتبطة بالنفط، بسبب المحاولة الفاشلة ـ وقتها ـ لإرجاع جنوب السودان لأحضان الوطن.

جاء القرار بناء على طلب خاص من وزير التعليم نفسه والذي تجادل لساعات وساعات في المقهى المحلي مع رئيس الجامعة، والذي يعمل أيضًا كرئيس قسم أو عميد لهذه الكُلية أو

تلك حسب الضرورة، ليقنعه أن تدريس أي تخصص له علاقة بالنفط مهم، مهما كان الموقف في البلد، لأن موضوع الدراسة يُغذي فروع أخرى؛ الكيمياء والكيمياء الحيوية والجيولوجيا والجيوفيزياء والمعادن والرياضيات وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات ورسم الخرائط والتنقيب عن المياه، وما إلى ذلك.

لكن ذلك لم يجدِ نفعًا، فالوزير الذي كان يرتدي ملابس تقليدية، دون حارس شخصي ولا يبدو عليه أنه يرتدي سُترة مرئية مضادة للرصاص، كان عنيدًا؛ فالدولة تُعاني من ضائقة مالية كما هو الحال دائمًا، ويحتاجون لتوفير كل قرشٍ من أجل القضايا الأخرى ذات الأهمية قصوى.

أراد أن يسأله: لمَ يتضمن هذا دورات دراسية مكثفة عن الشعر الإنجليزي في القرن الحادي عشر؟ ولكنه كان يعرف أنه لن يتلق أي إجابة مباشرة.

وكل حقول النفط هُناك في الجنوب، كما هو الحال دومًا، إذن ما جدوى الإنفاق بسخاء على قسم بترول في مؤسستك الموقرة؟ وهكذا استمر الشد والجذب!

ماذا عليه أن يفعل الآن؟ أن يسترد كل الكتب الدراسية التي باعها لليونسكو؛ والتي تعد تراثًا ثقافيًا، طبعات قديمة من القرن الماضي. وهنالك كل خريجي وأساتذة أقسام البترول الساخطين، الذين غادر نصفهم البلاد بالفعل بحثًا عن عمل في مجالهم التخصصي.

إعادتهم سوف تُكلف ثروة!

ولماذا يهتم؟ هو لم يتخذ تلك القرارات السياسية، بل الحكومة. هما من حفروا لأنفسهم هذه الحفرة، والآن عليهم تدبر طريقة للخروج منها.

***

رن جرس الهاتف التلفزيوني في منزل مدير الجامعة، وراح يدور حول نفسه، فأجاب المدير الهاتف قائلًا:

- ماذا الخطب الآن؟

- ألم تسمع بما حدث؟

إنه الوزير مُجددًا، يتحدث بنفسه، ليس يتحدث سكرتيره أو مساعده الشخصي، كما هي التقاليد في كل مكان.

- لا، للأسف، كنت مشغولًا بتناول الطعام. هذا ما أفعله عادةً وقت غدائي، إن أردت أن تعرف.

ند عن صورة الوزير المشوشة على الشاشة ثنائية الأبعاد ما يشي بالاعتذار، ثم أضاف:

- لقد نالت كَسَلا استقلالها.

قال المدير: هُناك يجعلني أبقي التلفاز مغلقًا أثناء تناولي الطعام.

ثم قال في سريرته: كسلا؟! إنها حيث نزرع...

قاطع الوزير أفكاره قائلًا:

- سيكون علينا أيقاف برنامج منحات الهندسة الحيوية الدراسية الذي تموله الشركات الزراعية، فهذا هو المكان الوحيد الذ استثمروا فيه لإنتاج المحصول ذي الجينات المُضفرة...

أغلق المدير جهاز الاستقبال، لا يُريد أن يسمع البقية، لا يحتاج لذلك.

***

مر أسبوع، ثم جمع مُدير الجامعة عُمداء كُليات لا يرأسها بنفسه. لقد استقلت بعض المحافظات، وبعض الأقاليم داخل المحافظات؛ وصدرت الأوامر العليا لإلغاء هذا البرنامج التعليمي أو ذاك.

قالها مُدير الجامعة بلهجةٍ آمرة:

- يجب أن يتوقف هذا، قريبا لن نكون قادرين على تعليم الطلبة القراءة والكتابة خشية أن يشجعهم هذا على الانفصال،

عندما يقرأون صفحة الكلمات المتقاطعة في الصحيفة اليومية! أي اقتراحات؟

لم يقل أحدٌ شيئًا.

أراد أن يقتلع شعر رأسه، بدلًا من ذلك استمر في الكلام، كما لو كان يحدث نفسه:

- لا يُمكننا حتى تتبع خريجينا. بمجرد خروجهم من البلاد، لا يستخدمون حتى نفس حسابات الفيسبوك. كيف يفترض أن نستفيد من خبراتهم ونعيد البناء استعدادًا لذلك اليوم المجيد عندما تقرر المُقاطعات الرجوع إلى الوطن الأم؟

قال شخصٌ ما أخيرًا:

- ربما يمكننا منعهم من المغادرة؟

أجاب العميد:

- هذا ضد الشريعة، أرض ألله واسعه؛ وليس لدينا الحق في منع الناس من التقدم في حياتهم، وتعمير الأرض، ونفع البشرية بمواهبهم التي ولدوا بها ووهبها الله لهم.

ثم أضاف قائلًا:

- وماذا سنستفيد من وجودهم ها هنا دون وظيفة؟ سوف يُصابون بالجنون، ويمزقون البلد أكثر مما هي ممزقة بالفعل.

تدخل آخر قائلًا:

- ربما نستطيع إجبارهم على ترك معرفتهم هنا؟

سأله العميد ساخرًا:

- تقصد يتركون مذكراتهم وكراريسهم هنا؟

قال أخر:

- في هذا الصدد، لقد قطعنا شوطًا كبيرًا في قسم المسح الدماغي.

ثم أضاف شبه مازحًا:

- ربما يُمكننا حفظ أدمغتهم في قرصٍ صلب!

بدأت الغرفة تدور في عينيّ العميد. حان وقت إجراء مكالمة فيديو أخرى.

***

قال الوزير:

- هل أنتم جادين!

كانا مجددًا في المقهى، في شوارع الخرطوم المزدحمة، عاصمة السودان الموحدة ... حتى الآن. الناس في كل مكان يبيعون أشياء عديدة؛ الخرز، والحلوى، والحلي، وآلات الهارمونيكا الموسيقية. لا يمكنك أن تتحرك بين هذا الزحام والصخب. الأمر شبيه بملعب لكرة القدم، مليء بالمتدربين ليصيروا رجال أعمال، ليس بينهم متسول واحد.

- تمام الجدية. من الممكن تنفيذ الأمر. لقد شكلت فريق إدارة أزمات وأجرينا اختبارات. يمكننا نسخ المعلومات من دماغ أحد

الخاضعين إلى التجربة وبرمجتها داخل أدمغة آخرين، هذا سيخفض التكاليف أيضًا. لا مراجع جديدة، أو معلمين جدد، أو أقسام جديدة. نحتاج إلى عقول جديدة وصافية، لدمج المعلومات بها.

ابتهج الوزير قائلًا:

- وما المطلوب مني؟

- الحصول على الموافقة. وتجهيز إدارة الطيران وجميع نقاط التفتيش الحدودية لوضع الماسحات الدماغية الإجبارية. والتأكد من أن كل من يريد مغادرة البلاد لديه جميع أوراق الاعتماد الأكاديمية.

قال الوزير بسعادة:

- لن يكون ذلك صعبًا.

سأله العميد متحققًا:

- هل أنت متأكد؟

- بالطبع، فوزير الطيران هو أيضًا وزير الأمن وهو نفسه وزير مصائد الأسماك. لديه ختم ثلاثي يمكن أن يختصر الوقت الضائع في الروتين. هل تعرف كم يكلف أن يكون لكل وزارة أوراق منفصلة؟ لولا الأوراق المُعادة تدويرها التي تصنعها الشركة الصينية باستخدام المُخلفات الزراعية، لغرقنا في الديون حتى ذقوننا.

- لا عجب، فهذه هي الكلية الوحيدة التي لم تقدروا على إغلاقها بجانب الشعر الإنجليزي.

# مخلب القط

قال الرجل العجوز في القهوة: مخاطبًا الجميع بصوت عال: "لا يوجد شيء أفضل من الطبيعة، صدقوني. لا شيء أفضل من خلق الله"

عندما وصلت هذه الكلمات الصاخبة إلى أذن المخترع، ابتسم ساخرًا. إنه يتعامل مع المعادن، مع الدوائر الكهربائية، مع معالجات الكمبيوتر الدقيقة. أشياء قضى عمره بأكمله يدرسها ويصقلها ويعتني بها ليستفيد منها على أكمل وجه. أما أشياء الحية فهي تعتني بنفسها.

كان الطلب قليل على أمثاله لسببٍ ما؛ ولهذا يقضي وقته هنا، يشرب الشاي الفاتر والقهوة المرة، ويستمع إلى الرجال المسنين المخبولين الذين لا يعرفون ما القرن الذي يعيشون فيه.

نهض وغادر المكان، فقد حان الوقت ليتجول كعادته في شوارع وسط البلد المزدحمة؛ لم يكن لديه شيء آخر أفضل للقيام به.

كان يمشي في شارع يتراص على جانبيه متاجر الحلوى والمخبوزات، ورأى الكبار والصغار يستمتعون بالأكل، ثم لاحظ قطًا يقف تقريبًا على قائمتيه الخلفيتين، واضعًا "يديه" على عمود إنارة. لقد وضعت الحكومة هذه "الأشياء" المعدنية القديمة للسماح للناس أن يأتوا إلى هنا ويتناولون الطعام أثناء الليل. يبدو أن هذا هو كل ما يفعله الناس في الوقت الحاضر، تناول الطعام والشراب، والثرثرة الفارغة.

كان يعتقد أن القط ينقب بحثًا عن بعض الطعام، كما يفعل هو ذاته العاطل عن العمل؛ ربما لطخ أحدهم عمود الانارة المعدني بقطعة من فطيرة محلاة.

اقترب أكثر ليتحقق من الأمر، فاكتشف أن القط يخمش العمود، مثلما تخدش القطط عادةً جذوع الأشجار. ولكنه كان يؤذي بنفسه بفعل ذلك، فالمعدن ليس مادة متجاوبة كالخشب، وبالتالي فإن مخالب القط المسكين ستنكسر بينما الخدش لن يؤذي عمود الإنارة، عدا من إزالة الطلاء. ولكن ماذا يمكن أن يفعله القط للحفاظ على مخالبه حادة ومصقولة ودون أن تطول كثيرًا؟

لا شك أن الحكومة تتكبد مبالغ طائلة لإعادة طلاء هذه الأعمدة باهظة. لا شيء من هذا القبيل سيحدث للخشب. إذا زرعوا هنا أشجارًا بدلًا من هذه المسوخ المعدنية، فإن القطط يمكنها أن تشحذ مخالبها دون أن تؤذي نفسها، في حين أن جروح الشجرة يمكنها أن تلتئم دومًا. والأشجار أفضل لأسباب أخرى عديدة؛ فهي تحمي رأسك من التعرض المباشر لأشعة الشمس، فالأوراق والأغصان المتداخلة تعزل الضوء جزئيًا، فتسمح فقط بمرور ما يكفي من الضوء للقراءة والتمتع بالمكان. تسمح

الأوراق والأغصان أيضًا بمرور النسيم أيضا، وهكذا لن تختنق من حرارة الصيف، أو تتجمد حتى الموت داخل شقتك بصحبة التكييف الاصطناعي، وتكلفة المكيفات الصانعة باهظة للغاية، لا من الناحية المادية فقط، فالمكيفات تؤدي إلى اضطراب مستويات الحرارة والرطوبة في المدينة أيضا. علاوة على ذلك هنالك العصافير، تعشش وتغرد بين الأغصان.

ولو زاد عدد العصافير بشكلٍ أكبر من اللازم، يمكن للقطط أن تتسلق جذوع الأشجار وتبقي أعداد العصافير تحت السيطرة، و ... و ... و ...

رباه!

***

أمضى المخترع أسابيعًا في شقته التي أعدها لتصير مختبره الخاص الصغير، يعمل على صقل اختراعه، الذي كان حينها نصف اختراع فقط، يركب أسلاك الجهاز ويعيد توزيعها، لا يريد

صنع شيء يستهلك الكهرباء. بل شيء يولد بنفسه الطاقة التي يحتاجها، يحصدها من الهواء ذاته.

إذا نجح الاختراع فسيغير كل شيء؛ سيجعله رجل سعيد دون يخل بالنظام الطبيعي الذي تجري به الأمور.

وهذا سيجعل القطط سعيدة أيضًا!

***

لم يعرف أحد من أين جاء هذا الرجل الذي حفر شاقًا صخور الرصيف ليصنع حفرة في الأرض، ثم "غرس" هذا الشيء على مرأى من الجميع.

شجرة، في قلب وسط البلد، في منتصف الشارع، محاطة بالجانبين بمتاجر الحلوى والمخبوزات.

شجرة متوهجة بالمصابيح الكهربائية التي تعمل بالطاقة الشمسية، ولكنها لا تستمد طاقتها من الألواح الشمسية الباهظة

المستوردة من الخارج وتحتاج إلى الصيانة الدورية، بل تستمد الطاقة مباشرة من أوراق الشجرة نفسها!

نوعٌ ما من محولات الكلوروفيل، تمتد أسلاكه ليصل إلى الطاقة الشمسية التي تحولها الشجرة إلى سكريات وأكسجين. يحصد الطاقة في الصباح ليضيء الشوارع عندما يحل الظلام.

كان هناك أيضا جهاز بث لاسلكي من نوعٍ ما مثبت في النصف السفلي من جذع الشجرة. لم يجرؤ أحدٌ على لمسه، أو الاقتراب من الشجرة بالأحرى، لأنها كانت تحت "الحراسة".

كان هناك عددٌ من قطط، تجلس مسافات متساوية من بعضها البعض، على أهبة الاستعداد لحماية الشجرة. إن غامر شخصٌ ساذج بالاقتراب من الشجرة، تطلق هذه المخلوقات الشرسة فحيحها في وجهه بنظراتٍ صارمة وهي تلوح بمخالبها الحادة. كانت حركات القطط متزامنة، كأنهم مبرمجين ويتلقون التعليمات من مكانٍ ما.

كانت آذانهم مسحوبة للخلف، جهة الشجرة.

أما بقية القطط فكانت تشحذ مخالبها في لحاء الشجرة.

لم يبد على الشجرة أنها تبالي، بينما الطيور تغرد في فروعها بسلام، وفضلات الطيور تتساقط مباشرة في التربة، لإمداد الشجرة بالسماد الرباني.

لا يوجد أجمل من الطبيعة، شريطة أن تمد لها يد العون من وقتٍ لآخر!

# منحنى في الفضاء الخارجي

قال لسائق سيارة الأجرة باللغة العربية الفصحى في محاولة لإخفاء لهجته: "الحي السوري من فضلك".

أجابه السائق اللبناني: "أي واحد منهم تقصد؟"

"ماذا تعني؟"

"هناك واحد فقط على الخريطة. ولكن هناك خمسة في الواقع."

"خمسة!"

أخبره السائق بأسمائهم.

"ولكن تلك هي مدن في ..."

قال السائق: "بالضبط". ثم راح يكتب شيئا على عداد سيارة الأجرة، فانبعثت خمسة أرقام من الشاشة ثلاثية الأبعاد.

قال السائق" "صحيح، هل أخبرتك أن كل واحد له تكلفة خاصة به. إذن، كم من المال أن مستعد أن تدفع؟"

***

كان مدير وكالة الفضاء العربية، والذي يطلق على نفسه لقب "الرائد"، يجري اجتماعًا عن طريق الفيديو مع وزير المالية الذي اصرت جامعة الدول العربية ان يشرف على لجنة المريخ لـ "الوكالة العربية للفضاء والملاحة الجوية"

(ASAA - Arab Space and Aeronautics Agency)

التابعة لـ "المنظمة العربية لبحوث الفضاء والاستشعار عن بعد" ( Space -Pan-Arab Remote Sensing and PRSA Research Association)، التي كانت بدورها تخضع لإشراف "لجنة الجامعة العربية لحسن استغلال للفضاء الخارجي للأغراض النفعية". (لم تكن هناك أي أحرف أولية لذلك اللجنة، ولم يتقرر بعد بشكلٍ واضح أين تقع لجنة المريخ في المعادلة حتى الآن).

لم يكن الرائد قادرًا على رؤية وجه الوزير، بل كان ينظر إلى الكوفية البيضاء التي تعلوا رأسه، والسبب هو الوزير كان يحدق إلى الأسفل على الأرجح هناك شيء أمامه يشغل اهتمامه بالكامل.

قال الرائد: "ليس من العقل أن نظل نسرف في أنفاق المال لحل المشكلة، فالمال ليس هو المشكلة الحقيقية؛ المشكلة فينا نحن. نحن نحمل مشاكلنا معنا أينما رحلنا وأينما حططنا كما نحمل متاعنا. كل مشاكلنا التي نبتت على الأرض. "

وأخيرا رفع الوزير رأسه ليحدق في عينيّ الرائد قائلًا بصرامة متقمصًا دور المحاسب الذي لا تفوته شاردة ولا واردة: "لقد استأجرناك لحل مشاكلنا. استأمناك على أموالنا. هل نسيت ذلك؟"

كان للرائد جولات سابقة مع هذا الوزير، فقال: "لا تقلق، أموالكم تؤتي ثمارها." كان لدى الرائد فريق متخصص من المحاسبين من سويسرا لدعم كل افتراضاته؛ بعد أن راجع الأرقام

بنفسه، مع فريق من خبراء الفيزياء الفلكية اختارهم بعناية وفق معايير خاصة. كان عليه أن يدفع لهم مقابل ساعات العمل الاضافية لاستخدام الحاسوب الفلكي العملاق.

فكر الرائد بينه وبين نفسه، هذا هو الشكر الذي نحصل مقابل عملنا الدؤوب وتعبنا من أجلهم، وتفكيرنا بالنيابة عنهم. ترى هل أحس صلاح الدين الأيوبي بذلك عندما اضطر إلى أن يذهب إلى التجار لتحرير القدس؟

***

انتاب الرائد احساسًا بالحيرة والغضب. لقد عاد أفضل عملائه ـ أو مستشار العصف الذهني ـ لتوه من الكوكب الأحمر، متخفيا كسائح، وأخبره بما رآه بأم عينيه، أشياء لم يكن يرغب في أن يسمعها، خصوصا بعد هذه الرحلة الطويلة. كان الرائد يفضل التقارير الشفهية بينما عميله السري المحنك يفضل كتابة التقارير بيده.

قال العميل: "لا يستطيعون العيش معًا حتى لو كان في حي واحد لعين. لم نحصل سوى على مستعمرة واحدة على المريخ، بينما حصل الإسرائيليون على عدة ". كانت المقاطعات الخمسة تحمل أسماء مدن متناحرة لا تزال تلعق جراحها منذ الحرب الأهلية السورية.

ثم أكمل قائلًا: "المستعمرات الإسرائيلية تحيط المستعمرات العربية إحاطة السوار بالمعصم، وتضيق الخناق عليها، بينما الكيبوتيسات (المزارع اليهودية الجماعية) تحيل الصحراء الحمراء إلى اللون الأخضر."

"كم دفعت في النهاية؟"

"تعتمد الرسوم على مقدار الإتاوات التي تفرضها كل أسرة حاكمة".

"التاريخ يعيد نفسه، إنها حروب الردة من جديد. والمقاطعة السورية لا تدفع حتى الزكاة لوكالة الفضاء العروبية في مقابل

معالجات الغلاف الجوي، أو تقنيات الزراعة المائية التي أقرضناها لهم."

قال العميل: "ماذا عساي أن أقول، إنهم يؤمنون بالتمويل الذاتي." وقرر ألا يخبره كم اضطر أن يدفع على نقطة التفتيش الحدودية بين المقاطعة اللبنانية والمقاطعة السورية. كان الجو متوترًا بما فيه الكفاية.

واضاف الرائد، "يستخدمون أساليب لوى الذراع".

"لكنهم يبلون حسنًا في مجال تجارة الماس. انهم يحفرو المزيد من المناجم في الوقت الحا..."

قاطعه الرائد: "هذا بدلًا من الاهتمام بزراعة المحاصيل. ماذا عن الحي المصري؟"

"أفضل بكثير والحمد لله. المزارعون يقومون بعمل عظيم مع التربة المريخية. يقولون إنها لا تختلف كثيرًا عن الصحراء الغربية"

صمت العميل فجأة، فسأله الرائد: "وماذا بعد؟"

أضاف العميل: "لا يزالون غير قادرين على الحصول على التصاريح التي يحتاجونها. إنهم..."

صمت مجددًا فقال الرائد ليستحثه على مواصلة الحديث: "هات ما عندك."

"انهم يتقاتلون على حقوق ملكية الأرض. المحاكم مثقله بالدعاوى القضائية، لا يمكنها التعامل مع جميع ادعاءات المواريث ".

"هل كل المباني متجاورة ومتلاصقة مما ينتهم قوانين الإسكان الآدمية للأمم المتحدة؟"

اومأ الرجل مطرقًا برأسه في احباط، ولكن بداخله أراد أن يضحك.

زفر الرائد طويلا، فقد كان هو نفسه مصريًا، ويعرف المصريين جيدًا.

قال عميله في محاولة لمواساته: "انظر إلى الجانب المشرق، لقد حصلت ماليزيا على مستعمرتين هناك، وهما في ازدهار. أما إيران فقد حصلت على مدينة، مدينة عملاقه، خارج الحزام الحديدي الإسرائيلي. بينما تركيا تحرز تقدمًا كبيرًا أيضًا."

"تعني انها تحرز تقدمًا في وجه الإيرانيين."

"على الأقل سيوجد في النهاية من له مكانة جيدة في مواجهة الإسرائيليين، عندما تحين ساعة المواجهة الحتمية".

قال الرائد: "ولكن ليس نحن من سيحسم المواجهة ". ثم نظر إلى ساعته؛ فبالإضافة إلى إخباره بالوقت ودرجة الحرارة كانت ترصد له نبضات القلب، ونشاط دماغه الكهربائي ومستويات حموضة المعدة. الشيء الوحيد المتبقي لقياسه هي نوع الحياة التي سيحياها هذا اليوم.

قال عميله: "صلاح الدين كان كرديًا"، كان مولعا بتذكيره بذلك بمناسبة ودون مناسبة.

أجابه الرائد وهو يحدق مجددًا في وجهه: "نعم، وانت فلسطيني، أي اقتراحات؟"

قال نصف مازحا: "استمر في حرث الحقول علي أمل أن تتعثر في حقل نفط."

"تقصد قبل الإسرائيليين؟"

"قل يا رب!"

تمت بحمد الله

يوم ٠٤/ ٠٦/ ٢٠١٧

# دراسة نقدية

## معالم المستقبل الطريف في قصص "الهيدرا الرقمية"

بقلم الناقد الأدبي أ. خالد جودة أحمد

قدم القاص الفلسطيني المصري د. عماد الدين عيشة، مجموعته القصصية الجيدة "من أدب الخيال العلمي والمستقبل"، للقارئ العربي ـ كما أشار العنوان الموازي لعنوان المجموعة ـ عبر بوابة ترجمة النصوص القصصية التي كتبها القاص في اللغة الإنجليزية، بواسطة الأديب والمترجم/ أحمد صلاح المهدى، وهو أيضًا أحد كتاب الخيال العلمي، مما جعل لترجمته شفافية ورقي في استيعاب سمات الأدب النوعي في نسيج القصص.

ولم يكن وصفي لمجموعة القصص بالجيدة، منبت الصلة عن ذائقتي الخاصة، حيث المتعة الفنية التي تذوقتها، ففي قصة "زمن الأبطال" والتي قدمت فكرة الانتقال في الزمن للماضي، والتي

طالما طرق بابها كتاب الخيال العلمي، لكن الجديد هنا هو نسجها في ضوء ثقافة تاريخية، تتصل بألواح ملحمة كلكامش السومرية، والمدونة بالخط المسماري، والتي عدها البعض أقدم قصة مكتوبة في تاريخ الإنسانية.

وتحتوي تحرير لتفاصيل حول مقارنات الحياة بين الحضارتين القديمة والحديثة للعرب، ثم الانتقال للقرن الثاني والعشرين، وتضفير هذه الخيوط جميعًا لتقديم الحكمة، واستقرار سنن العطاء الكوني، وجدل الأجيال، ومن الحكمة الراقية في القصة والتي أراها مفتاحًا للفهم والنصر المبين: (أول قاعدة في القتال هي ألا تواجه عدوًا تعرف أنك لا تستطيع الانتصار عليه؛ لا يوجد أي عار في الانسحاب من ساحة القتال). وحيث العبرة أن الإنسان يجني على نفسه، فهو الجاني والضحية معًا: (حماقة البشر هي هوة بلا قاع). ويعدو ليؤكد ان الحق الذى لا تحميه شوك هو حق مضاع: (وأنقذوا العالم القديم قدم التاريخ .. ليس عن طريق

العنف بالمناسبة، بل بالتوازن بين العنف والإبداع). ثم الخاتمة المعبرة للقصة عن التغيير الممكن: (إنه يحمل هذا في دمائه، أن يصنع قدره بنفسه)

والتعبير في القصص يقتني أسلوب المشهد التصويري، فعندما وجد "مصطفي" بطل "ملحمة كلكامش" الهيكل المعدني الغريب أصر أن يمتطيه، ومفتاح المشهد التصويري قائم على تشبيه المسخ المعدني بالحوت: (كما أنه حرص على أن تظل الحبال ملتفة جيدًا حول الجسم المستطيل طيلة الرحلة، كشبكة صيد تجذب حوتًا رماه الموج على الشاطئ، وبدا ابنه كنسخة مصغرة من النبي يونس عليه السلام).

ويشتغل هذا المجاز دائما على طول القصص وعرضها، والشواهد النصية كثر، نجتزئ منها:

(كانوا محاطين بالكهنة، والسحرة، يطوقونهم مثل أنشوطة حبل مشنقة بشرية)

(أشجار النخيل تزين المدينة مثل المآذن في عالمها، والحقول الخضراء تصافح أعينهما في الأفق)

(..عندما رأى البوابات الخشبية العظيمة تفتح، كوحش فاغر فاه لابتلاعهم)

والانتماء للتراث العربي لم يتمثل فقط في الشواهد النصية الشريفة التي يبثها القاص في قصصه، بل بتمثل القص السحري العالمي في ألف ليلة وليلة، فيصور مرحلة الانتقال عبر الهيكل المعدني الغريب بطريقة تنتمي لفكرة القص العربي لشهيرة بخروج الجني من المصباح: (تسللت هالة مضيئة من شقوق جسد الشيء المعدني، ثم اجتاحهما دوامةٌ من ألوان قوس قزح قبل أن تتحول إلى زوبعة من ضوءٍ ساطح يعمي الأبصار)

ولم يكن الاهتمام بطاقة التعبير المستوحى من التراث منبت الصلة عن الإحساس العروبي، فتشتغل أكثر من قصة بفكرة المكون الثقافي للأمة، وفكرة البحث عن الهوية وتأكيد الأصالة

ووسائل مقاومة الآخر العدواني وليس الآخر الحضاري، الذي يسعي للقضاء علي الثقافة من خلال القضاء علي اللغة، يقول المستخرب في القصة التي اتخذت المجموعة اسمها "الهيدرا الرقمية": (لقد استأصلنا لغة هؤلاء القوم، وعاداتهم وملابسهم، لقد قضينا على قيادتهم بأكملها، سحقناهم عسكريا...)، وأنه ـ المستخرب ـ يمارس في سبيل ذلك عملية مسح الذاكرة، كما يمارس آلية سحق الإرادة الإنسانية الحرة، ويتضح في القصة أنه يبحث كي يقتل أي روح تلوح للمقاومة.

وكانت القصة ثرية بالتفاصيل الدقيقة التي تحدث متعة القراءة في تخيل المستقبل، حيث تدور أحداث القصة من خلال مشاهد تبادلية بين مشهد المستخرب، وهو المحتل العدواني ومساعده، وبين وسيلة المقاومة والتي تمثلت في ألعاب الفيديو في السوق السوداء، حيث أن المستقبل في القصة يتخيل أن المحتل يقوم بتركيب أقراص مدمجمة وحشرها في جماجم الناس، بتعبير

القصة: (لمحو الذكريات وتسهيل إدخال اللغة)، كطريقة لتحقيق خضوع الشعب المبتلى بنكبة الاحتلال، وباعتبارها تقنية لبتر الإرادات الحرة، ويراها طريقة مانعة حاكمة، لكن ظهرت تلك الألعاب والتي احتوت لغتها والتي تُحمل نفسها تلقائيًا لعقول الشبيبة، وحققت التنوير للتثوير وتبصير الفتيان لحقيقة الاحتلال وخبثه، وكان السبيل للنصر فكرة التوريث من خلال مسار هذه الألعاب الرقمي، حيث يرى الشباب من خلال لغة الألعاب الخاصة: (تاريخ شعبه بأكمله، أن يلعب دور كل أبطالهم، أن يعيش المعارك والانتصارات وأن يتعلم من الهزائم. تعلموا إدارة شؤون المدينة ودبلوماسيتها واقتصادها وعلومها. تشريع القوانين الجديدة. إعادة تشكيل مجلس الشيوخ ليمثل الشعب. كل شيء)، هنا نجد الملمح المهم بالمقاومة عن طريق العلم والتاريخ.

ثم تأتي العبارة المضيئة والتي تحمل الخلاصة، وتصف أن المقاومة رحلة مجيدة تنبع من اليقين الذاتي: (أنت تحمل شعبًا معك

أينما ذهبت، في قلبك وروحك. وبما أن جمجمتك لا يمكن اختراقها، فلن يشعر أحدًا بشيء)

وقد استهل القاص قصتين من قصص المجموعة بنصين استهلاليين الأول لجلال الدين الرومي، يتحدث عن ناي يشكو آلام غربته بعد اغترابه بقطعه من منبته في الغابة، وينشد صدرًا مزقه الفراق، ويقدم هذا النص الحكمة: (فكل إنسان أقام بعيدًا عن أصله / يظل يبحث عن زمان وصله). فالاختيار هنا يصب في فكرة الهوية ورعاية "اللغة" باعتبارها المكون الثقافي الأهم في الهوية القومية وضرورتها في ظل اجتياح الإنسان العربي برياح العولمة المقيتة.

أما معالم المستقبل الطريف في القصص، فتتضح في وعي القاص المهموم بهذا المستقبل وتخيله، وفطنته لفكرة العودة للبدائية، مع مزجها بتقنيات حديثة، ليبدو هذا العصر العجيب، الذي يتسربل تقدمه العلمي بالتخلف والوحشية، فسكان المدن

يفرون للصحراء، ويجرون أشيائهم بالجمال، والطعام لهم رفاهية، ويحيون حياة هجينة بين تقدم علمي وحياة بداوة، فالأقراص المدمجة شبه مجانية، من نوع بحجم الجيب، تحشر في الرؤوس. كما تشتغل الإدارة العامة في المستقبل على فكرة ترميز المعلومات في الأدمغة وابتكار جهاز المسح الدماغي للمواطنين، واستعماله في نقاط التفتيش الحدودية، وتطور أسلحة الفتك فالأباتشي موضة قديمة، وابتكار بنادق الطاقة الطبيعة، واللوح الهولوجرامي ذاتي الشحن، ودوره في التواصل في المستقبل، والعلاقة بين اللغات، وتقنية الترجمات التقنية الفورية بينها، ونفي التخصص الإداري، والجيل الجديد ونحر الآداب والرومانتيكية، فمرتكز التفوق الرياضيات والهندسة وليس الشعر والخطابة مثل الآباء.

كما اشتغل وعي القاص علي أخطر مشكلات الإنسان الآنية والتي ترسم معالم المستقبل الكئيب، وهو فكرة التلوث البيئي، وخطورته الداهمة، (هل سيظل هناك هواء لنتنفسه في المستقبل

البعيد؟ ألن يكون قد استُهلِك حينها؟ وبالتأكيد ستصير الأرض مجدبة حينها ويتبخر الماء في الهواء، وتصير التربة مالحة، والقشرة الأرضية هشة، وينمسخ الحيوانات والنباتات و... البشر إلى أقزام)

وتحضر البيئة في عالم المستقبل في أكثر من قصة من خلال فكرة التدوير للمخلفات وكيف تكون عمادًا للاقتصاديات المستقبلية، يقول: (لولا الأوراق المُعادة تدويرها التي تصنعها الشركة الصينية باستخدام المُخلفات الزراعية، لغرقنا في الديون حتى ذقوننا)

وفي الشأن الإداري نجد الوزير ثلاثي المهام، يتولى حقائب وزارات ثلاثة (الطيران / الأمن / مصائد الأسماك) حيث نفي التخصص الذي سجن العقول، والقضاء على الروتين الممرض للإدارة العامة.

وفي قصة "استبدال الخواطر" حكي حول الطاقة كمورد بيئي، ونضوب مورد طبيعي وهو النفط، وما ترتب على هذا الشأن بإلغاء تخصصات دراسية جامعية، وبيع كتبها لليونسكو باعتبارها تراثًا منقرضًا، لكن لا تتركنا القصص دون شعاع من الأمل مرة بالمقاومة ومرات بالعلم، فطريقة الحل بتوصية قصة الاستبدال: (نحن بحاجة لعقول جديدة منفتحة).

والحل العلمي كان متن قصة "مخلب القط" أيضًا حيث تحفيز طريقة التفكير العلمي في علاج مشكلة البيئة، وتقدم معارف حول الطاقة النظيفة، ومعارف عن الشجرة ودورها البيئي المهم، وتقدم القصة مقابلة بين صور سلبية حول تضييع الناس أوقاتهم، وصور أخرى إيجابية تمثلت في تنمية ملكة التفكير والحل العلمي المرتب، وآليات انتاج هذه الحلول، وتقدم رأيين مختلفين: الأول: (الأشياء الحية تعتني بنفسها)، والرأي الآخر مثل الخلاصة في خاتمة القصة

الشيقة (لا يوجد شيء مثل الطبيعة، شريطة أن تمد لها يد العون من وقتٍ لآخر!).

وفي القصة أيضًا ملمح مستقبلي طريف حول افكار الابتكار البيئي، فالمخترع يزرع (شجرة متوهجة بالمصابيح الكهربائية التي تعمل بالطاقة الشمسية، ولكنها لا تستمد طاقتها من الألواح الشمسية الباهظة المستوردة من الخارج وتحتاج إلى الصيانة الدورية، بل تستمد الطاقة مباشرة من أوراق الشجرة نفسها!)

هذه المعالم والأسلوب القصصي، ونسيج القصص ذاتها، ينبئ باتجاه أظنه قريبًا من القاص، وهو كتابة الرواية، فرحابة التفاصيل وخصوبة الخيال، وادراج مشرعات إزاحة الزمن نموذجًا عبر فكرة التاريخ البديل، او بتعبير قصة كلكامش (مستقبلكم ماضينا)، وفي قصة الهيدار، عن الجسم المعدني الرسول الذى يقاوم وحشًا، وغيرها تخبر عن مقدرة ونفس روائي تستدعيه قصة الخيال العلمي، وإذا كان د. عبدالمنعم تليمة يتحدث أن أضعف قصة

قصيرة هي التي عبارة عن رواية ملخصة، لكن ارى الاستثناء الوحيد من هذه المقولة هو قصة الخيال العلمي، لأنها تحتاج باستمرار لبناء عوالم جديدة بتفاصيل كثر، وإشباع لمعالم هذا المستقبل الطريف المخيف في آن واحد، لذلك أدعو قاصنا للاتجاه لكتابة رواية خيال علمي اعتقد أنها ستكون مثيرة وممتعة ومنذرة في آن واحد.

**خالد جودة**

# دراسة نقدية ٢

تحليل قصة "زمن الأبطال: ملحمة كلكامش الجديدة"

بقلم د. علا العبودي

لقد شرفني الأخ الفاضل د. عماد الدين عيشة بالاطلاع على مجموعة من مقالاته، والتي في اغلبها لها طابع سياسي عربي لكاتب مدقق ومحلل بارع دائم البحث عن أصل الاشياء وتاريخها. والحقُ أقول إنني وجدته في تلك الكتابات مبدعاً بحق، يجرب التمرد ويعلن الثورة.

اما فيما يتعلق بقصته القصيرة زمن الابطال فهي تدلل على براعته في تخير أدواته الفنية، وحسن توظيفها، فالقصة تتصل في دلالاتها العامة مع مضامين مقالاته وخاصة المضمون السياسي، وتعبر عن عدم انسجامه مع الواقع، ورغبته في إظهار كل تناقضاته بكل سوءاتها.

فسوف اتناول النقد الفني للقصة في نقاط:

- العنوان : زمن الأبطال ، ملحمة كلكامش الجديدة ، له دلالة محددة بحدود قصد الكاتب، ومن خلال رؤيتي أن الكاتب موفق كل التوفيق في اختيار هذا العنوان لقصته ، ذلك لأن النص يحتوي على لمحة تاريخية عميقة مفعمة بحب المغامرة والشغف الى كشف المجهول بالإضافة إلى الواقع المفعم بالمخاطر العسكرية والتحديات المعيشية العديدة، هذا الدمج بين ملامح من زمن قديم وواقع حديث غير المنصف قد لا يجمعهما إلا هذا العنوان ، وقد يجمعهما أيضا ميله الى التشبيه بالقديم كما في "وبدا ابنه كنسخة مصغرة من النبي يونس عليه السلام " ، "منذ أيام جدهم الأكبر، النبي إبراهيم عليه السلام".
- يمتاز هذا العمل بالواقعية الانتقادية، فيلاحظ القارئ رفض الكاتب للواقع الاليم الذي يعيش فيه مجتمعنا العربي فقد رسم مشاهد خفية لنتائج الحروب العربية هنا وهناك نتلمسه في اظهار

الفقر والبؤس كما في "الغذاء يعد رفاهية في تلك الأيام"، "سرعان ما أمسى الغذاء رفاهية "، "وهو يشعر بالعطش والخوف". كما أظهر الكاتب لمحات من الهزيمة والقهر كما في "كان الخوف هو الشيء الوحيد الذي يكبح جماح غضبه"، "ولكن لم يكن معهما أي شيء ـ ولا حتى خنجر ـ ليدافعا به عن نفسيهما".

- العقدة هنا تمثلت في الخوف من الحروب والمنازعات المسلحة، فكان ذلك مثار حزن وألم وصراع داخلي لبطلي القصة، ثم بدأ حل هذه العقدة عندما توصل مصطفى الابن إلى طريقة للتواصل مع كلكامش والتحدث له.
- يستمرئ الكاتب الحديث عن المظاهر القديمة المتمثلة في البلدة، ويذكر تفاصيلها ومفارقاتها، وشواهد ذلك عديدة، منها ما نراه في وصف الصياد (كبير البلدة) وأسلحته وعربته، وبيوت البلدة، وفي هذا نتلمس الفارق بينها وبين الحياة الحالية بما فيها من طائرات أباتشي وجهاز لوحي يعمل بالطاقة الشمسية واليوتيوب.

- سلط الكاتب الأضواء على المفارقات بين واقع المجتمع قديماً والمجتمع الحالي، ليخلق للقارئ حالة معرفية عن طبيعة الحياة الاجتماعية قديماً ومتطلباتها ولكن بشكل سريع؛ ويوضح انعكاس أثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في صياغة وتبرير الاضطرابات والتناقضات السياسية التي تسود المجتمع العربي حالياً، الأمر الذي قد يعبر عن رفض هذا الواقع ومحاولة اصلاحه كما في "الرجل الذي سيعيد الأمور إلى نصابها الصحيح".
- الشخصيات: الشخصية الأساسية: مصطفي ووالدة وهما يمثلان التريث والتعقل من جانب والتهور والاندفاع وشغف المعرفة من جانب آخر؛ شخصية كلكامش: وقد عملت رؤية الكاتب على إظهار الجانب الإنساني في شخصية الرجل حاكم البلدة ورئيسها كلكامش كما نجد في "إنه شيخ هذه المدينة، ولا يمكنه أن يقف مكتوف الأيدي وهناك جائع في قومه".

أما المرأة فهي هامشية الدور لم تظهر الا في عمة مصطفى الأبن ثم في نساء وفتيات البلدة وكانت الإشارة لهن بصفة عامة وعابرة.

يجب الإشادة ببراعة د. عماد الدين في تجنب المباشرة في معالجة الموضوعات السياسية خاصة في هذه القصة فالقصة ليست ذات محتوى واقعي سياسي، ومع ذلك فأحداثها أثر من آثار هذا الواقع.

**د. علا العبودي**

**جامعة القاهرة**

# الفهرس

إهداء _____ ٥

مقدمة المترجم _____ ٧

الهيدرا الرقمية _____ ١٣

زمن الأبطال ملحمة كلكامش الجديدة _____ ٢٧

استبدال الخواطر _____ ٧٩

مخلب القط _____ ٨٩

منحنى في الفضاء الخارجي _____ ٩٧

دراسة نقدية _____ ١٠٧

دراسة نقدية ٢ _____ ١١٩